الفصل العشرون

ديدرو بروتيه

١٧٥٨ – ١٧٧٣

١ – القائل بوحدة الوجود

إننا نسميه بروتية Proteus لأنه مثل إله البحر عند هوميروس ، حاول أن يفلت من أيدى صائديه بالتشكل فى مختلف الأشكال.[١] أما فولتير فقد أطلق على ديدرو اسم بانتوفيلس ، لأنه أولع بكل فروع العلوم والأدب والفلسفة والفن . وكان له بكل هذه المجالات معرفة واسعة ، وأسهم فى كل واحد منها إسهاماً مثيراً موحيا . وكانت الأفكار هى كل زاده وعتاده . فجمعها وتذوقها وفحصها . ثم سكبها مشوشة تشويشا مسرفا حيثما وجد قرطاساً خالياً أو آذانا صاغية « إنى أضع أفكارى على الورق ولتكن ما تكون »[٢] وربما أصبحت أعداء . ولم ينسق قط بينها ولم يهتم قط بترابطها . ويمكن أن نقتبس عنه فى أى اتجاه تقريباً ، ولكن نزعته المركبة كانت جلية واضحة . وكان أكثر أصالة من فولتير ، وربما كان السبب فى هذا أنه لم يرتض قط المعايير التقليدية . وقد يطلق لنفسه العنان دون قيود مقبولة . وتتبع كل نظرية أنى قادته ، أحياناً إلى أعماقها وأحياناً أخرى إلى حثالتها . وتعرف على كل وجهات النظر إلا وجهات نظر القسيس والقديس لأنه لم يكن لديه حقائق أو أشياء يقينية « أنى لا أهتم بتشكيل السحب أكثر منى بتبديدها ، وتعطيل القرار أو الحكم ، لا باتخاذه .. أنا لا أقرر ، بل أتساءل [٣] أنا أترك ذهنى يهيم إلى حد السرف ، وأطلق العنان لمتابعة أية فكرة سليمة كانت أو طائشة ، تأتى أو تقفز إلى ذهنى أولا ، وأتعقبها كما يتعقب الشباب الداعر محظية بائسة وهى تبتسم ، وتتلألأ عيناها وتنظر بازدراء ... إن أفكارى هى محظياتى [٤].

وكان لديدرو خيال عقلانى ، فتخيل الأفكار والفلسفات والشخصيات كما يتخيل الآخرون الأشكال والمشاهد . ومن غيره كان يستطيع فى زمانه أن يتصور « أين أخى رامو » المخزى اللا أخلاقى الفاتن . إنه بعد أن يخلق أحد شخوصه يدعه ينمو ويتطور وكأنما يفعل ذلك طواعية واختياراً . ثم يدع هذه الشخصية تقوده ، وكأنما المؤلف هو الدمية المتحركة أو الألعوبة . إنه تخيل نفسه فى مكان راهبة شابة كارهة ثم جعلها حقيقة إلى حد أن المتشككين الفرنسيين تولاهم الجزع لمحنتها . أنه جرب الأفكار تجريبا عقلياً ، وتمسك بها بعض الوقت ، وتخيل نتائجها منطقيا أو عمليا ، ثم طرحها جانبا. وما كادت توجد فكرة فى هـــذا العصر إلا دارت بخلده . أنه واقعيا لم يكن مجرد موسوعة متحركة ، بل كان معملا متنقلا . سارت أفكاره معه أينما سار .

وهكذا فإن ديدرو فى كتابة « بعض الأفكار فى تفسير الطبيعة » الذى نشره فى ١٧٥٤ غفلا من اسم المؤلف ، بترخيص ضمنى من الرقيب الكريم المحسن مالشرب — تلاعب بأفكار عن الأحدية (القول بأن ثمة مبدأ غائبا واحداً ، كالعقل أو المادة . القول بأن الحقيقة كل عضوى واحد) . والمادية والآلية والحيوية (المذهب الحيوى الذى يقول بأن الحياة مستمدة من مبدأ حيوى وأنها لا تعتمد اعتمادا كليا على العمليات الفيزيائية والكيميائية) والتطور . وكان لا يزال متأثراً ببيكون وأخذ عنه العنوان والصيغة الحكيمة ودعوة رجال العلم ليتكاتفوا فى العمل على قهر الطبيعة عن طريق التجريب والعقل . وتأثر كذلك بكتاب موبرتيوس « منهج عام للطبيعة » (١٧٥١) وكتاب بيفون (التاريخ الطبيعى (١٧٤٩) . واتفق مع موبرتيوس على أن كل مادة قد تكون حية ، ومع بيفون فى أن علم الحياة (البيولوجيا) مستعد الآن للتحدث إلى الفلسفة . ورحب عند المؤلفين كليهما بفرضية التطور الناشئة.

وبدأ ديدرو بمخطط ضخم : (إنها الطبيعة هى التى أريد أن أصفها ، إن الطبيعة هى الكتاب الوحيد أمام الفليسوف) [٥] و تصور أن الطبيعة قوة

نصف عمياء ونصف ذكية ، تؤثر فى المادة وتبعث فيها الحياة ، وتهيء للحياة مليون شكل تجريبى ، وتدخل التحسين على هذا العضو . وتنبذ ذاك العضو ، تحيي وتميت بشكل مبدع . وفى هذا المعمل الكونى ظهرت واختفت آلاف الأنواع .

(أنه مثل ما هو حادث فى مملكتى الحيوان والنبات ، ينشأ فرد وينمو ويبقى ثم يهلك ويزول ، فهلا يمكن أن تكون كل الأنواع على هذا المنوال؟ إذا لم تعلمنا العقيدة أن الحيوانات تأتى عن يدى الخالق كما نراها ، وإذا كان هناك أدنى شك فى بدايتها ونهايتها ، فهلا يفترض الفليسوف المستسلم لخواطره أن الحيوانية أخذت عن كل الأبدية كل العناصر الخاصة بها ، ثم تبعثرت واختلطت بكتلة المادة ، وحدث أن هذه العناصر اتحدت كلما أمكن حدوث هذا الاتحاد ، وأن الجنين الذى تكون من هذه العناصر مر بتنظيمات وتطورات لاحد لها ، وأنه اكتسب على التوالى حركة وأفكاراً وتفكيراً وتأملا ووعيا ومشاعر وانفعالات ورموزا وإيماءات وأصواتا واضحة ولغة وقانونا وعلوما وفنونا ، وأن ملايين من السنين انقضت بين هذه التطورات ، وأنه قد لايزال أمام هذا الكائن تطورات أخرى يمر بها وأضافات أخرى يتلقاها ، غير معروفة لنا الآن . . وأنه قد يفقد هذه المواهب والقدرات كما اكتسبها ، وأنه قد يختفى إلى الأبد من الطبيعة ، لا بل إنه قد يبقى على قيـــد الحياة فى شكل آخر بمواهب وقدرات مختلفة كل الاختلاف عما نراه فيه فى هذه اللحظة من الزمان ؟ (٦)

إن الطبيعة عند ديدرو هى كل شيء وهى إله . ولكنا لا نعرف عن جوهرها إلا وفرتها المضطربة والتغير الدائب الذى لا يهدأ فيها . والطبيعة هى المادة الحية . ولكن المادة تحتوى فى نفسها على اندفاع الحياة وعلى إمكانية التفكير . وليس الإنسان آلة كما أنه ليس روحا غير مادية ، والجسم والنفس كائن واحد ويفنيان معا (إن كل شيء يدمر نفسه ثم يهلك

ولا يبقى إلا العالم ، ولا يثبت إلا الزمان [٧] والطبيعة محايدة ولا تعمد إلى التفريق بين الخير والشر والكبير والصغير والآثم والقديس . أنها تعنى بالأنواع الفرد . فلينضج الفرد ويتكاثر ثم ليمت ولسوف يفنى كل نوع كذلك . أن الطبيعة حكيمة فى عدد لا يحصى من التفاصيل البارعة التى يبدو أنها تكشف عن التخطيط إنها تمنح الكائنات غرائز تمكنها من الحياة ومن تهيئة الحياة لغيرها ، ولكن الطبيعة أيضاً عمياء تدمر الفلاسفة والحمقى على حد سواء ، بقذيفة واحدة من النار أو بضربة واحدة من يدها على أديم الأرض ، ولن يكون فى مقدورنا أن نفهم الطبيعة ولا أن نكشف النقاب عن أغراضها أو معناها إذا كان لها ثمة أغراض أو معنى ، لأننا نحن أنفسنا طوال تاريخنا الدموى الجليل من بين ألعابها أو رياضاتها العابرة المتناهية فى الصغر .

٢ — حلم دالمبير

تابع ديدرو تأملاته فى الطبيعة فى واحد من أغرب المؤلفات فى الأدب الفرنسى — حلم دالمبير (وامتاز ديدرو بعرض أفكاره فى صورة حلم ، ودس الحلم على صديقه بأن جعل اثنين من مشاهير المعاصرين — جولى دى لسبيناس ودكتور تيوفيل دى بوردو — متحدثين فى الحوار . وقال ديدرو لخليلته « إنى أضع أفكارى على لسان رجل يحلم . وغالبا ما يكون ضروريا أن نضفى على الحكمة جوا من السخف والحمق حتى نهيء لها مدخلا » [٨] وتحت هذه الأقنعة أطلق العنان لخياله الفلسفى غير مبال بأى خطر شخصى أو أية نتائج اجتماعية ، وكان مسروراً غاية السرور بالنتيجة . ووصفه صوفى فوللاند بأنه (أكثر ماكتب حمقا وعمقا ، فيه خمس أو ست صفحات تجعل شعر رأسك ينتصب » [٩] على أنه أكد لها أنه لم يتضمن كلمة واحدة خاطئة [١٠]. أنه كتبه فى عام ١٧٦٩ وقرأ أجزاء منه على أصدقائه ، وفكر فى طبعه ، والمفروض فى الخارج . فاحتجت الآنسة دى لسبيناس لأسباب سوف تتضح فيما بعد . وفى حركة بطولية ألقى بالمخطوطة فى النار ، وربما كان يعلم أن هناك نسخة أخرى . وعلى أية حال طبع الكتاب فى ١٨٣٠ .

أته عمل ثلاثى . وفى « المحادثة » الأولية بين ديدرو ودالمبير يعترض العالم الرياضى على مذهب صديقه المادى الحيوى بأنه ليس مقبولا أكثر من قبول مفهوم الله عند رجال اللاهوت فى القرون الوسطى . يقول ديدرو : « ليس بينك وبين الحيوان إلا فارق واحد فى الكائن الحى (درجة التطور العضوى) وكذلك الحال بين الحيوان والنبات » . ومن ثم فإن كل شىء فى الإنسان يجب أن تكون له بذرته أو نظيره فى النباتات» . ويسأل دالمبير : وفى المادة أيضاً ؟ فيرد ديدرو بالإيجاب ، لأنك « كيف تعرف أن الوجدان لا يلتئم مع المادة—أنت الذى لا تعرف جوهر أى شىء لا المادة ولا الوجدان؟ وليس ثمة إلا جوهر واحد فى الكون فى الإنسان وفى الحيوان [١١] » .

ويبرز الجزء الثانى من هذه الثلاثية دكتور بوردو والآنسة دى لسبيناس إلى جوار سرير دالمبير وهو نائم بعد أمسية قضاها فى الجدل والحوار مع ديدرو (وكانت الآنسة وقد اشتهرت فعلا بصالونها تقيم مع دالمبير فى لون من الحياة الأفلاطونية) . وتروى للطبيب أن صديقها رأى فيما يرى النائم حلما مزعجاً وأنه تحدث فى نومه حديثا غريبا وأنها دونت بعض ملاحظات عن هذا الحديث ، مثال ذلك إن دالمبير قال لديدرو « انتظر قليلا أيها الفيلسوف. أنا أستطيع أن أدرك بسهولة مجموعة . . من الكائنات الصغيرة التى تحس ، ولكن الحيوان ؟ هل هو كل . . بوعى من وحدته الخاصة به ؟ أنا لا أرى هذا [١٢] ويرى الحالم فى منامه أن ديدرو يروغ إذ من السؤال يتخذ موقفاً عفوياً « عندما رأيت المادة الهامدة تصبح فى حالة شعور فلا شىء يدهشنى بعد ذلك » .[١٣] . ويتابع ديدرو : «إذا كانت كل الأنواع الموجودة ستزول فإنها أو أية أشكال أخرى من الحيوان ستنتج على إمتداد الزمن تخمر الأرض والهواء . ويشترك بوردو والآنسة فى المناقشة، ولكن تقاطعهما صرخة مفاجئة من الرجل الذى يحلم الذى يتحدث الآن مثل ديدرو . « لماذا أكون أنا الآن كما أنا ؟ لأنه لم يكن ثمة مفر من أن أكون كذلك . إذا كان كل شىء فى تغير عام متواصل فما الذى لا يمكن إنتاجه هنا أو فى أى مكان آخر

بمرور ملايين القرون وتقلباتها ؟ . . . ومن يدرينا أن الكائن المفكر الذى يحس ويشعر موجود على كوكب زحل ؟ . . . هل يمكن أن يكون للكائن المفكر الذى يحس ويشعر فى زحل حواس أكثر منا ؟ آه إذا كان الأمر كذلك لكان ساكن زحل سيء الحظ لأنه كلما ازدادت الحواس ازدادت الحاجات [١٤] » .

ويعلق بوردو على ذلك « أنه على حق طبقا لنظرية لا مارك فى التطور العضوى ، فإن الأعضاء تولد الحاجات وبالتبادل تولد الحاجات الأعضاء » .

ويصحو دالمبير لحظة ويجد بوردو يقبل لسبيناس فيحتج . ويأمرانه بالعودة إلى النوم فيمتثل . وينسى الطبيب وصاحبته الصابون ويتتبعان الأفكار التى بدأت فى الحلم ويشير بوردو إلى ولادة المخلوقات الإنسانية الغريبة ويتحدى المؤمنين بالتخطيط الالهى أن يفسروها . وتسنح للآنسة لحة خاطفة بارعة « ربما كان الرجل مجرد صورة مشوهة من المرأة أو المرأة صورة مشوهة من الرجل [١٥] . ويضيف الطبيب إلى هـــذا على طريقة ديدرو « الفرق الوحيد بينهما أن لأحدهما كيس يتدلى فى الخارج وللأخر كيس مثبت فى الداخل » . ويستيقظ دالمبير ويحتج « أنت تتحدث بكلام بذىء إلى الآنسة لسبيناس » وينهض بوردو لأنه كان على موعد مع مريض آخر ، ويتوسل إليه دالمبير أن يبقى ليفسر له : « كيف حدث أنه ظل كما هو بالنسبة لنفسه وللآخرين طوال التقلبات التى عاناها طوال سنى حياته على حين أنه ربما لم يعد لديه شيء قط من الجزئيات التى كانت له عند مولده » ؟ فيجيب الطبيب « أنها الذاكرة و . . بطء التغيرات » . وتقدم الأنسة قياسا مثيراً « أن الدير يحتفظ بروحه لأنه يمتلىء بالرواد شيئا فشيئا وإذا قدم راهب جديد فأنه يجد مائة راهب قديم يقودونه إلى أن يفكر ويحس مثل ما يفعلون هم أنفسهم [١٦] » .

ويسيطر بوردو منذ الآن على المناقشة وهو يفرق بين النزعة الرومانتيكية والنزعة التقليدية القديمة حسبما تسيطر الحواس على الذهن الواعى أو يسيطر

الذهن الواعى عليها . ويرى ن لسبيناس مثال وأضح على الحالة الأولى ويقول لها فى رقة « إنك ستوزعين وقتك بين الضحك والدموع ولن تكونى أكثر من طفل » ويذكر تفسيرا فسيولوجيا للإحلام : « النوم حالة لا يعود يوجد فيها تنسيق بين الحواس عن طريق الوعى أو الهدف ، ولا يعود يوجد أى عمل مدبر أو نظام وضبط والسيد (النفس الواعية) ستسلم لهوى أتباعه (الحواس) . . . هل الخيط (الأعصاب) مشدود ؟ إذن يرى أصل الشبكة (المخ) . وإذا أراد خيط السمع فأنه يسمع . والفعل ورد الفعل (الأحساس والأستجابة) هما الشيئان الوحيدان اللذان يبقيان بينهما . وهذا نتيجة طبيعية لقانون الأستمرار والعادة . إذا بدأ الفعل بالغاية الشهوانية التى قدرتها الطبيعة للذة الحب ، وتكاثر النوع فإن أثره على أصل الحزمة (المجموعة) هو الكشف عن صورة المحبوب . ومن جهة أخرى إذا ظهرت هذه الصورة بادىء ذى بدء لأصل الحزمة فستكون شدة الرغبة الشهوانية وهياج السائل المنوى وتدفقه ، هذه كلها ستكون نتيجة رد الفعل . . . وفى حالة اليقظة تذعن الشبكة للصور التى يطبعها فى الذهن شىء خارجى . وفى حالة النائم ، فإنه من ممارسته شعوره الخاص ، ينبثق كل شىء فى نفسه . وليس فى الحلم شىء يصرف الأنتباه ومن ثم كانت حيوية ونشاطه[١٧] » .

وربما أحس بوردو بأن المريض الذى كان قد قرر زيارته قد يشفى بالطبيعة أسرع منه بالدواء ، ولذلك نسيه ، وأنطلق يشرح الجبرية (الإيمان بالقضاء والقدر) ويصف « إحترام الذات ، والخجل والندم » بأنها صبيانيات مبنية على جهل وغرور شخصى ينسب لنفسه مزايا ونقائض فى لحظة لا مفر منها[١٨] .

وأفتتن ديدور بالطبيب بوردو ناطقا بلسانه ، حتى أنه فى الجزء الثالث « مواصلة المحادثة » أغفل دالمبير . وإذ تحرر الطبيب فإنه أنكر العفة باعتبارها أمرا غير طبيعى ، ويقر الأستمناء متنفساً ضروريا عن الحويصلات المكتظة أو المحتقنة « أن الطبيعة لا تجيز شيئاً غير ذى فائدة . فهل أكون ملوما فى

مساعدتها إذا أهابت بى لمعونتها فى أقل الأعراض شبهة وريبة ؟ وبجدر بنا إلا نستفزها أبدا ، بل نمد لهـــا يد المعونة بين الحين والحين[١٩] » . ويختتم الطبيب كلامه بتحييذ التجارب فى مجال الخلط المنتج بين مختلف الأنواع ، حيث يمكن أن ينتج هـــذا الخلط نمطا من الإنسان الحيوان الذى قد يقنع بخدمة الإنسان . وتستبق الآنسة لسبيناس أناتول فرانس والبطارقة ، فتتسأل : وهل ينبغى تعميد أنصاف الرجال هؤلاء ؟

بوردو (وهو يهم بالخروج) : هل رأيت فى حديقة الحيوان ، فى قفص من زجاج إنسان الغاب (ضرب من القردة العليا الشبيهة بالإنسان يقطن فى بورنيو وسومطره) يبدو وكأنه سان جون يلقى المواعظ فى الصحراء ؟

الآنسة : نعم رأيته .

بوردو (وهو يغادر المكان) : قال له الـكارد ينال دى بوليناك ، « تكلم وأنا أعمدك[٢٠] » .

وفى « مبادىء الفسيولوجيا » (١٧٧٤) صاغ ديدرو نظريته فى التطور ، متأملا فى الحلقة المفقودة ، فهو يقول « من الضرورى أن نبدأ بتصنيف الـكائنات ، إبتداء من الجزىء الحامل غير الفعال (إذا وجد) إلى الجزىء النشيط الفعال ، إلى الحيوانات الدقيقة التى لاترى إلا بالمجهر . . . إلى النبات ، وإلى الحيوان ، وإلى الإنسان . . . يجدر إلا يصدق المرء أن سلسلة الكائنات قد عوقتها وأعتراض سبيلها تباين الأشكال وتنوعها ، فالشكل مجرد قناع خداع . وربما وجدت الحلقة المفقودة فى كائن غير معروف ، لم يستطع علم التشريح المقارن بعد أن يحدد مكانه الحقيقى[٢١] .

٣ — ديدرو والمسيحية

كان ديدرو قد وعد صوفى فوللاند بأنه لن يتعرض للديانة فى « حلم دالمبير » والواقع بطبيعة الحال أن « الثلاثى » أورد فلسفة استغنت عن الألهة تماما . وظل ديدرو فى العلن ربوبيا متمسكا بأن الله هو « المحرك الرئيسى » فقط ،

منكرا العناية الألهية والتخطيط والتدبير الألهى . وكان من الناحية النظرية « لا أدريا » ينكر أى علم أو إهتمام بأى شيء فيما وراء دنيا الحواس ودنيا العلوم ، وتحدث أحيانا بشكل غامض عن وعى كونى تعثر وتخبط عبر زمان لا حدود له ، وقام بتجارب تنتج الأن أشخاصا غريبة عقيمة أو يسبب أحداثا سعيدة — لا يكاد يكون ألها بتقبل الصلوات والدعوات . ويمكن أن يصبح فى أحدى نوبات الغضب خصيماً عنيفا ، وأنبأ عن مبغض البشر الذى بث فكرة الإله ، أنتقاما من الحياة ، وأنتشرت الفكرة ، وسرعان ما تشاجر الناس وكره بعضهم بعضا ، وقطع الواحد منهم رقبة الآخر . وكانوا يفعلون نفس الشيء منذ جرى هذا الأسم الكريه على الألسنة . وأضاف ديدرو فى إبتهاج مقرون بالحذر « ربما ضحيت بحياتى فى سبيل القضاء على فكرة الألة قضاء مبرما[٢٢] . » ومع ذلك فأن نفس العبقرية المهوشة أحست بنظام الكون وعظمته المذهلتين ، وكتب إلى الآنسة فوللاند : « أن الألحاد أقرب ما يكون إلى الحراقة ، وكلاهما صبيانى طائش » ، ثم أضاف « لقد جن جنونى لأنى حائر متورط فى فلسفة شيطانية لا أملك إلا أن يقرها ذهنى وينبذها قلبى[٢٣] » وأقر فى سنيه الأخيرة بعد ذلك صعوبة أشتشقاق العضوى من غير العضوى أو الفكر من الأحساس[٢٤] » .

ولكن ديدرو لم يهدأ قط فى حملاته على المسيحية ، وثمة فقرة مثيره من رسالة خاصة تلخص موقفه منها ، « من رأيى أن العقيدة المسيحية أسخف وأشنع ما تكون فى تعاليمها ومبادئها ، كما أنها مستعصية على الفهم ، ميتافيزيقية مربكة غامضة إلى أبعد الحدود . ومن ثم كانت أكثر تعرضا للأنقسامات والشيع والأنشقاقات والهرطقات ، وأكثرها ايذاء وازعاجا للهدوء العام ، وخطرا على الملوك والحكام فى تسلسل مراتبها الكهنوتية واضطهاداتها ونظامها العام ، وهى أشد العقائد فتورا وكآبة وبعدا عن المدنية ، وعبوسا فى طقوسها ، وأشدها صبيانية وأنطوائية وبعدا عن الروح الاجتماعية فى اخلاقياتها . . . وهى متعصبة لا تحتمل إلا أقصى[٢٥] .

وفى « نزهة المتشكك » (١٧٤٧) كان ديدرو قد اعترف بخدمات الكنيسة فى تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق ولكنه بعد ذلك رأى أن المسيحية ، على حين تنهى عن الجرائم البسيطة ، تبعث على إقتراف الجرائم الكبيرة ، « سيأتى ، أن عاجلا أو آجلا . الوقت الذى نرى فيه أن نفس العقيدة التى حالت بين الإنسان وبين سرقة شلن واحد ، تكون سببا فى قتل ١٠٠ ألف شخص . تعويض رائع ! [٢٦] ومهما يكن من أمر ، فأن لأفكارنا الدينية أقل الأثر فى أخلاقنا [٢٧] ، والناس يرهبون القوانين الحالية أكثر مما يخشون نار جهنم الآجلة والأله الذى لايرونه . أن القسيس نفسه قلما يعتمد على الدعاء والصلاة للالهة ، اللهم إلا إذا كان المرء لا يعنيه إلا قليلا[٢٨] . وفى ١٧٧٣ تنبا ديدرو بأن الإيمان بالله والخضوع للملوك لن يعود لهما وجود فى بحر سنوات قلائل فى كل مكان[٢٩] ويبدو أن النبؤة تحققت فى فرنسا فى ١٧٩٢ . ولكن ديدرو تنبأ أيضاً « بأن الإيمان بوجود الله سيبقى[٣٠] » .

ومثل معظم الذين فقدوا إيمانهم بالمذهب الكاثوليكى ، فإن نفس ديدرو الذى ذهب إلى أن المراسم والطقوس الكاثوليكية كئيبة حزينة ، ظل حساسا لجمال ووقار الشعائر الكاثوليكية . ودافع عنها ضد النقاد البروتستانت فى صالونه ١٧٦٥ ، فهو يقول : « أن هؤلاء المتشددين الحمقى لا يدركون مدى تأثير الطقوس المظهرية على الناس . أنهم لم يشهدو قط توقير الصليب فى يوم الجمعة الحزينة ، وحماسة الجماهير فى موكب عيد القربان . وهى حماسة كانت فى بعض الأحيان تجرفنى أنا نفسى . أنى لم أر قط هذا الصف الطويل من القساوسة فى ملابسهم الكهنوتية ، ومساعديهم الصغار فى ثيابهم البيضاء ينثرون الزهور أمام القربان المقدس ، ولم أر هذه الجماهير الحاشدة التى تسبقهم وتعقبهم فى صمت دينى رهيب ، كما أن كثيراً من الناس ينبطحون على الأرض . ولم أسمع قط هذه التراتيل الوقورة التى ينشدها الكهنة وترددها فى حب وإخلاص الجموع الحفيرة من الرجال والنساء والأطفال ، إلا أهتز قلبى من الأعماق ، وذرفت عيناى الدموع[٣١] . »

ولكنه إستأنف الهجوم بعد أن مسح عينيه . ففي « مناقشة فيلسوف مع المارشال دى . . . (١٧٧٦) تخيل رجلا متشككا أسماه كروديلى (معناها بالأيطالية قاس) يتحدث مع أحدى سيدات المجتمع النبيلات ، تعتقد أن من ينكر « التثليث المبارك » إنما هو متوحش مصيره إلى المشنقة . وتدهش السيدة إذ تجد أن كروديلى الذى هو ملحد ، ليس أيضاً لصاً ومنغمساً فى الشهوات يقول « أظن أنه إذا لم يكن لدى شىء أخشاه أو آمل فيه بعد الموت فأنى سأستبيح لنفسى كثيراً من الملذات اليسيرة هنا » . ويسأل كروديلى « وما هى هذه الأشياء » ؟ « أنى أعترف بها للكاهن فحسب . . . . ولكن ما لذى يدفع الكافر غير المؤمن ليكون طيبا إلا إذا كان مجنونا ؟ » أنها تتراجع قليلا أمام حججه ثم تتخذ خط دفاع آخر : « ينبغى أن يكن لدينا ما نرهب به الأعمال التى تفلت من قبضة القانون القاسية وفضلا عن ذلك إذا قضيت على الديانة فماذا تضع محلها ؟ » . فيجيب كروديلى « هبى أنه ليس هناك شىء يحل محل الدين ، فلسوف يكون دائما على يقة حال ضرر وظلم أقل » . إنه يصور المسلمين فى ثورة يذبحون فيها المسيحيين ، والنصارى يحرقون المسلمين واليهود .

الماريشال : هب أن كل ما اعتقدته باطلا كان حقاً ، وأنك هالك . إنه لشىء رهيب مزعج أن تكون هالكاً ملعوناً وأن تصلى النار إلى الأبد .

كروديلى : يقول لافونتين بأننا سننعم بالراحة ، مثل السمك فى الماء .

الماريشال : نعم ، نعم ، ولكن لافونتين أصبح وقوراً تقياً جداً آخر الأمر ، وأتوقع أن تكون كذلك .

كروديلى : أنا لاأستطيع أن أجيب بشىء إذا ضعف مخى .

أن أشد الفلاسفة عداوة لرجال الدين كان يحس بمرارة بالغة نحو ما بدا له أنه ضياع لحيوية البشر وطاقاتهم فى أديار الرهبان والراهبات . وفى إحدى

صفحاته الغاضبة أنحى بأعنف اللوم عـــلى الآباء الذين حكموا على بناتهم بالعيش بين جدران الدير وهن كارهات . إن من أروع كتاباته من الناحية الفنية ، بعثاً خيالياً من جديد لحياة راهبة من هؤلاء . أنه كتب رسالة الراهبة فى ١٧٦٠ نتيجة مزحة كان يأمل جريم وديدرو من ورائها أن يعيدا إلى رفقتهما المركيز دى كرواكسمير من كاين إلى باريس . وحوالى هذه الفترة أثار ديدرو نداء وجهته الراهبة إلى برلمان باريس لاحلالها من القسم الذى أكرهها والداها عليه (كما تدعى) . وتعطف المركز فكتب إلى البرلمان يناصر قضية الراهبة ، ولكن دون جدوى .

إننا لانعرف عن هذه الراهبة شيئاً أكثر من هذا ، ولكن ديدرو أعاد كتابة تاريخها فى تصوير واقعى يخلد ذكراها على مدى القرون . وافترض أنها هربت من الدير ، وأرسل إلى كرواكسمير عدة رسائل — وكأنها بقلمها — تصف فيها معاناتها فى الدير ، وتطلب أن يمد لها يد المساعدة لتبدأ حياة جديدة . وأجاب المركيز ، ورد ديدرو ، باسمها ، واستمرت هذه المراسلات أربعة شهور فى مائة وخمسين صحيفة .

وصور ديدرو سوزان تعانى من رئيسة الدير الغليظة القلب ، فهى تضطهدها وتحبسها وتجردها من ملابسها وتعذبها وتحرمها من الطعام ، فتشكو إلى أحد الكهنة الذى يهيء لها سبيل الانتقال إلى دير آخر . وهناك كانت رئيسة الدير الجديد مساحقة وشغفتها الراهبة حباً ، وتوسلت إليها لمعاونتها . وربما بالغ ديدرو فى وصف قساوة الأمهات رئيسات الأديار وشقاء الراهبات وحزنهن . ولكنه جعل كل الكهنة فى قصته ودودين محبوبين مطبوعين على حب الخير ، وعالج فكرة السحاق فى رقة نادراً ما ظهرت فى مؤلفاته . وتأثر المركيز وقدم إلى باريس . وتكشفت له الخدعة ولكنه تجاوز عنها وكانت هذه القصة الغريبة قد أدت إلى دراسة رائعة فى علم النفس ، كانت متأثرة بقصة ريتشاردسن « كلاريسا » ولم يتعمق أى متشكك قط بمثل هذه القوة فى مشاعر القديس ، وفاجأ أحد الزوار

الكاتب وهو يدون هذه الرسائل ، فوجده كما يروى جريم « حزينا غاية الحزن ... ويذرف الدمع [٣٢] واعترف ديدرو بأنه كان يبكى لقصته هذه، فما أسرع ماكانت الدموع تجرى فى عينيه ، مثل روسو. وكان فخوراً ، بشكل يمكن الصفح عنه ، بقصته الموضوعة على هيئة رسائل ، وباحتمال أن تكون صحيحة ، وبالعاطفة الدافقة فيها ، وبأسلوبها ، وقد عنى بمراجعتها وتنقيحها ، وأوصى بنشرها بعد موته . ورأت هذه القصة الثورة فى ١٧٩٦ فى عهد الثورة وفى ١٨٦٥ أحرقت قصة « الراهبة » علناً بناء على أمر من محكمة السين [٣٣] :

ومع قصة الراهبة ، نشر فى ١٧٩٦ ، كما أحرق معها فى ١٨٦٥ « جاك المؤمن بالقضاء والقدر وسيده » الذى أعتبره ديدرو أعظم إنتاجه [٣٤] ، بداعى التقارب فى الزمن . وربما كان الأمر كذلك ، ولكنه أيضاً أسخف ماكتب . وافتتن ديدرو بقصة « ترسترام شاندى » فاتخذ أسلوب ستيرن (قصصى انجليزى فى القرن الثامن عشر ١٧٦٠ — ١٧٦٨) فى تأليف قصة قائمة إلى حد كبير على اعتراض السياق ، فيقطعه من حين إلى آخر ، فى نزوة من نزواته ، ليتحدث إلى القارىء عن شخوص القصة . وبدأ الكتاب واختتمه بقطع وأحداث منقولة مباشرة من ستيرن . [٣٥] وفاق ستيرن فى إزعاج القارىء بين الحين والحين بفحش القول . إن شخصى القصة يعكسان أسلوب سرفنتيز فى التباين بين السيد وتابعه فى المزاج والفلسفة . فالسيد يرفض فكرة القضاء والقدر على حين يؤمن جاك بها . إن كل شىء يحدث هنا على الأرض مسطور فى كتاب هناك . [٣٦] إن جاك « يعتقد أن الإنسان يشق طريقه بالضرورة إلى المجد أو إلى الخزى والعار ، كما تنطلق الكرة متتبعة انحدار الجبل الذى تدحرجت عليه . إن رئيس جاك السابق كان قد ملأ رأسه بكل هذه الأفكار التى استقاها من سبينوزا الذى حفظه عن ظهر قلب [٣٧] وهو رئيس نادر المثال .

وفى أواسط القصة يتلكأ ديدرو ليروى فى حماسة وبراعة قصة

المركيزة دى لا بومراى عشيقة المركيز دى ارسيز . أنها أرتابت فى أنه سئمها ، فعزمت على أن تكتشف الأمر بالأشارة إلى أن علاقتها أصبحت عبئاً ثقيلا ، أنه أساء إليها أبلغ أساءة بتصريحه بأنه يود أن يفلت من عشيقة إلى صديقة ، فتدبر المركيزة إنتقاما فريداً فى يأبه . وتعثر على بغى جميلة ، وتتحمل نفقات أبدال ملابسها وتعلمها الأجرومية وآداب السلوك وتلقنها مبادىء التقوى المثيرة للاعجاب ، وتقدمها إلى المركيز على أنها سيدة من ذوات الحسب والنسب ، ودربتها على أن تثير نزواته وترفض عرضه لأن تكون صديقته ، وأرشدتها إلى الطريقة التى تنتزع بها منه إقتراحا بالزواج . وبعد بضعة أشهر من الزواج تكشف مدام لا بومراى للمركيز عن ماضى زوجته . ولكن يفسد على المركيزة أنتقامها تطور غريب . ذلك أن المرأة الآثمة التى أعيد تشكيلها وصلح حالها عرفت كيف تحب زوجها المركيز ، وأعترفت له خجلة بأكبة بخدعتها وعرضت أن تختفى من حياته ، وفى الوقت نفسه كانت هى زوجة مخلصة ووفية إلى حد أن المركيز أكتشف أن فى الزواج سعادة أكبر مما هى فى الفجور والزنى . فيغتفر لها تضليلها ويأبى أن تفارقه ، ويعيش معها عيشة راضية ممتازة ، ويتحطم قلب بومراى من مرارة الهزيمة .

أن هذا الفاصل على أية حال هـــو أكثر ما يأخذ بالألباب فى « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » فأنه يتميز بمتانة التركيب ، واللمسات الرقيقه للواقعية النفسية (السيكولوجية) ، والشعور العميق فى تعبير هادىء . وهذه كلها تعوزها القصة على وجه الأجمال . واعترف شيللر بأنها درة فى فن الأدب . وترجمها إلى الالمانية فى ١٧٨٥ .

٤ — ابن أخى رامو

أن « ابن أخى رامو » ، لا « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » هو أعظم كتب ديدرو وأسماه جوته « الكتاب الممتاز الذى ألفه رجل لامع[٣٨] ، كتبه فى ١٧٦١ ومات قبل أن ينشر ، لأنه كان أقبح كتبه وأكثرها خزيا ، وفى

نفس الوقت أكثرها أصالة . وظاهر أنه رأى أنه غير مستساغ ليقدمه حتى لاصدقائه . وبعد موته تسربت نسخة منه إلى المانيا أحدثت هناك دويا شديدا. وارتاع له شيللر وثارت نفسه ، وحمله إلى جوته ، وكان آنذاك فى قمة الشهرة (١٨٠٥) فترجمه إلى الإلمانية . ودخلت هذه الترجمة إلى فرنسا وأعيدت ترجمة الكتاب إلى الفرنسية (١٨٢١) ونشرت طبعة أخرى١٨٢٣ ولكن هـــذه لم تصل إلى المطبعة إلا بعد أن كانت أبنة ديدرو قد هذبتها وحذفت منها ما لايليق نشره . ولم تكتشف المخطوطة الأصلية إلا فى عام ١٨٩١ فى كشك للكتب على ضفة نهر السين وهى موجودة الآن فى مكتبة بيربونت موجان فى نيويورك .

وأختار ديدرو لسانا ناطقا بأفكار غريبة شاذة إلى حد كان من العسير معه أن يعبر عنها ديدرو بضمير المتكلم . جان فرنسوا رامو هو ابن أخى الملحن المشهور جان فيليب رامو (الذى توفى ١٧٦٤) والذى كان لايزال على قيد الحياة حين كتب الحوار غير القابل للنشر . وعرف ديدرو الموسيقى معرفة جيدة ، وتحدث بطلاقة ودون تكلف عن لوكاتللى ، برجوليسى وجوميللى ، وجالوبى ، وليووفنسى ، وتارتينى ، وهاس ، وتنبأ بحق أنه فى العزف على الكمان سرعان ما سيحل العزف الشاق محل العزف الجميل ويزحزحه من مكانه(٣٩) .

وألف ابن الأخ موسيقى ، وأصاب بعض النجاح معلما للموسيقى . ولكن كان أسمه يقض مضجعه ويقلق باله . وكان يغار أشد الغيرة من عمه ويحقد عليه تفوقه . فتخلى عن المعركة ، وانغمس فى اللهو وأطلق العنان لشهواته ورغباته بشكل ينافى الأخلاق ، مما وصفه ديدرو فى قصته . وأكدت التقارير المعاصرة(٤٠) كثيراً من الصفات الأخرى التى نسبت إليه فى الحوار ، ولكن التاريخ لم يؤيد ماذهب إليه ديدرو من أنه كان قواد يتجر بجمال زوجته فى سوق الدعارة . وعندما فارقت هـــذه الزوجة الحياة فقد جان فرانسو كل احترام للنفس وجعل منه لسانه البذىء غير العف ، الشديد التهكم

والسخرية منبوذا فى المجتمع ، وطرد من دار مسيو برتان الثرى الذى كان لعدة سنوات قد إعتمد عليه فى تناول العشاء عندة ، وصار عليه أن يلتمس الزملاء فى مقهى « لا ريجانس » وفى أماكن أخرى تزخر بالأفكار التقدمية الى لاتغنى ولاتسمن من جوع . يقول ديدرو (لاحظ كيف يعكس حياته فى كتبه) : « فليكن الطقس معتدلا أو غائما معتما ، إن من عادتى أن أقصد سيراً على الأقدام فى الساعة الخامسة بعد الظهر إلى البالية رويال . وأنا الشخص الذى يمكن أن يقع بصرك عليه وحيدا دائما ، حالما على مقعد دارجنسون ، أبحث بينى وبين نفسى مشاكل السياسة والحب والذوق والفلسفة ، وأطلق لذهنى العنان . . . . وإذا أشتد البرد أو هطل المطر ، آوى إلى مقهى لا ريجانس ، أراقب لعب الشطرنج . . . وكنت ذات مساء هناك ، أتلفت إلى ما حولى ، أتكلم قليلا ، وأسمع قليلا بقدر الأمكان . حين دنا منى شخص من أغرب الأشخاص على الأرض[٤١] » .

وتجيء بعد ذلك شخصية رائعة : رجل أخنى عليه الدهر ، وهو يتذكر الخمر فى مرارة وكان فيما مضى كثير المال ناعم البال مع أجمل زوجة فى باريس ، واستقبل مرة فى كل دار أنيقة[٤٢] ، كما كان متمشيا مع كل الوان الثقافة فى فرنسا . ولكنه الآن يعانى الفقر والخزى والعار ، يعيش على ما يقتات به من موائد الذين يستشعرون الأشفاق عليه ، وعلى القروض المنسية ، لا يرى فى الحياة إلا الصراع والهزيمة ، ينبذ كل الديانة باعتبارها قرية جميلة ولكنها مرعبة ، وينظر إلى الاخلاقيات على أنها جبن وخداع ، ومع كل هذا يحتفظ بقد ركاف من ماضيه ليغلف تحررا من الوهم بفصاحة بارعة مهذبة ، ويكسو هذا التحرير رداء عقلانيا . ودعابته حادة مريرة : من ذلك قوله « أن السيدة (كذا) وضعت توأما ، سيكون لكل والد واحد منهما » أو قوله عن أوبرا جديدة « أن فيها بعض قطع جميلة والمؤلم حقاً أن هذه القطع لم توضع لأول مرة[٤٣] » . أن مأساته الكبرى هى أنه لايؤمن بشىء « وسمع بعض كلام روسو عن الطبيعة — كم هى أفضل من المدنية

وخير منها ، ولكنه يلاحظ أن فى الطبيعة يفتك كل نوع بالآخر ؟ والخاتمة الرهيبة هى التهام كل كائن وهو يرى نفس الألتهام والفتك (أكل الكائنات بعضها بعضا) فى دنيا الاقتصاد ، اللهم إلا أن فيها أناسا يستنزف بعضهم دم بعض عن طريق اجراء قانونى مقبول . وهو يرى أن الأخلاق مجرد خدعة يضلل بها ذوو الدهاء من الناس بسطاء العقول منهم ، أو يخدع بها السذج من الناس أنفسهم . أنظر إلى تلك المرأة التقية الورعة التى تغادر الكنيسة (بعد الصلاة) « أنها أثناء الليل تتدرب فى خيالها على مشاهد الفسق والخلاعة وعلى الأوضاع الشهوانية الداعرة عند أريتينو[٤٤] » ويرى ابن الأخ (جان فرنسوا) أن الرجل العاقل لأبد أن يسخر من الوصايا العشر « ويتمتع بكل الخطايا والآثام فى حكمة وتبصر » . مرحى أمرحى ! بالحكمة والفلسفة ! — حكمة سليمان : شرب أجود الخمور ، التهام أطيب الأطعمة ، مضاجعة أجمل النساء ، النوم على الفراش الوثير ، وكل ماعدا هذا تافه لاقيمة له[٤٥] ؟ وماذا بعد هذا يمكن أن يقول الفيسوف الإلمانى نيتشه أو الشاعر والكاتب الفرنسى بودلير وأمثالهما ؟ .

ويختتم ديدرو هذا العرض المفزع « للأفكار بأن ينعت ابن الأخ بأنه « بليد شره جبان ، روح من الطين » ويجيب رامو على هذا بقوله « أعتقد أنك على حق[٤٦] وتجول بخاطرنا فكرة خبيثة : كيف كان يتسنى لديدرو أن يصور هذه الشخصية بمثل هذه القوة والحيوية ، إذا لم تكن تكمن بين جنبيه هو نفسه ؟ أنه يحتج على هذه الفكرة ، ولكنه يسلم بأنه ليس قديساً : « أنا لا أستنكر لذة الحواس ، فإن لى أنا أيضاً ذوقا يستسيغ أطباق الطعام الشهى والأنبذة الجيدة . كما أن لى قلبا وعينين أحب أن يقعا على سيدة جميلة ، وأحب أن المس بيدى أن رقبتها مستديرة ثابتة ، وأن تعتصر شفتاها شفتى ، وأن أرشف اللذة والمتعة من عينيها ، وأن ألفظ النفس الأخير بين ذراعيها . ولا يزعجنى الأنغماس البسيط فى الملذات فى بعض الأحيان مع أصدقائى ، حتى ولو كان صاخبا بعض الشىء . ولكن لا أخفى عليكم أنه

يبدو لى أنه يخلو لى أكثر إلى أبعد الحـــدود ، أن أمد يد المساعدة إلى المنكوبين ، أو أسدى نصيحة مفيدة ، أو أقرأ كتابا جيدا ، أو أتنزه مشياً على الأقدام مع رجل أو امرأة عزيزة لدى أو أقضى مع أولادى بضع ساعات أتولى فيها توجيههم وتثقيفهم ، أو أكتب صفحة جيده أو أؤدى واجبات عملى ، أو أصب فى أذن حبيبتى بضع كلمات حلوة رقيقة حتى تحيط عنقى بذراعيها وتعانقنى .. إن أحد معارفى رجل من ذوى الثراء فى قرطاجنة ، وكان الأبن الأصغر فى بلد جرت العادة فيه أن تؤول كل الممتلكات إلى الأبن الأكبر ، وترامت إليه الأنباء فى كولمبيا أن أخاه الأكبر ، وهو شخص متلاف ، قد سلب أبويه اللذين دللاه وتساهلا معه كل ما كانا يملكان ، وطردهما من قصرهما . وأن هذين الوالدين الطيبين يعيشان الآن فى مدينة صغيرة فى الأقاليم يعانيان مرارة الفقر ، فماذا فعل هذا الأبن الأصغر الذى أساء والده معاملته إلى حد إنه رحل إلى أقصى الأرض يلتمس الرزق ؟ إنه أرسل إليهما معونة وعجل بتدبير أموره ، ليعود ثريا ميسوراً إلى أبيه وأمه ، واسترد لهما دارهما ، وهيأ الصداق لأخواته ليتزوجن . آه يا عزيزى رامو ، إن هذا الرجل يعتبر تلك الشهور أسعد أيام حياته . إنه حدثنى عنها والدموع تغمر عينيه . أما أنا ، وأنا أقص عليك هذه القصة ، فإنى أحس بأن قلبى قد أرهقه الفرح والغبطة والسرور الذى لا أجد كلمات للتعبير عنه (٤٧) .

٥ — علم الأخلاق والسياسة

كان لديدرو مثلما لنا جميعا ، شخصيتان على الأقل : نفس بأطنة تختزن فيها خفية كل دوافع الطبيعة البشرية ، كما هو موجود فى الحياة البدائية بل حتى حياة الحيوان ، ثم نفس ظاهرة للعيان تتقبل على كره منها التعليم والانضباط والأخلاق ، ثمنا يجب أن يدفع مقابل الحماية التى يبسطها النظام الاجتماعى. ولا تزال له أنفس أوشخصيات أخرى : ديدرو الذى لم يكن قد نسى شبابه ، وحرياته البوهيمية وحبيباته وخلوه من المسئوليات اللهم الا

أمام الشرطة ، ثم ديدرو رب أسرة ، الذى لو تهيأت له سيدة قادرة على فهم كلامه وأفكاره ، لأمكن أن يكون هو أيضاً . أحيانا ، زوجا صالحاً وأبا شغوفا بأبنائه ، وحيواناً شبه مستأنس ، ورجلا يقدر بعض التقدير المسالى والأخلاق والقانون .

إن هذه الشخصيه المزدوجة ، « دكتور جيكل ومستر هايد » ، أنتجت فيما بين عامى ١٧٧٠ — ١٧٧٢ . محاورتين توضحان تذبذب آرائه . ففى « حوار بين أب وأبنائه » يقدم صورة جميلة لأبيه وهو يشرح فى رفق «خطر أولئك الذين يتعالون على القانون أو يضعون أنفسهم فوقه » ولكنه بعد ذلك بعامين كتب أكثر أعماله تطرفا .وكان لويس أنطوان بوجينفيل قد نشر لتوه (١٧٧٢) كتابه « رحلة حول العالم » عدد فيه خبراته وتجاربه فى تاهيتى وغيرها من جزر المحيط الهادى الجنوبى ووقع بصر ديدرو على بعض أجزاء من هذا الكتاب تبين تفوق الحياة البدائية فى بعض النواحى على المدنية .ورغبة من ديدرو فى إبراز نواحى التفوق والسمو هذه ، كتب فى ١٧٧٢ بما هو معهود فيه من حيوية وخيال وتميز وشغف ، « ملحق لرحلة بوجينفيل» ، وهو كتاب لم ير النور إلا فى ١٧٩٦ . واختار ديدرو رجلا عجوزاً من أهالى تاهيتى أورد بوجينفيل ذكره ، وتخيل أنه يلقى خطابا يؤدع فيه أمير البحر لدى الفرنسيين الراحلين عن الجزيرة : « وأنت يا زعيم عصابة اللصوص المطاع الذين يمتثلون لأوامرك ، إغرب بسفينتك عن شواطئنا . فنحن أبرياء سعداء ، وكل ما تستطيع أن تفعل لنا هو أن تفسد علينا سعادتنا . إننا نهج نهج الفطرة النقية ، ولكنك تسعى لمحو أساس هذه الفطرة من نفوسنا . وهنا كل الأشياء ملك لكل الناس ، أما أنت فتبشر بتفريق غريب بين ما هو « ملك لك » وما هو « ملك لى » وكل بناتنا وزوجاتنا كانت لنا جميعا على الشيوع ، ولكنكم شاركتمونا هذه الميزة ودفعتم بهن إلى لوثات من الجنون ، ولم يكن لهن بها عهد من قبل . . وتناحرتم وقتل بعضكم بعضا من أجلهن وعدن مضرجات بدمائكم ... نحن أحرار ، ولكن تأمل كيف أنكم تقتسم

على أرضنا عنوان عبوديتنا فى المستقبل ..إنكم كتبتم على هذا النصل المعدنى « هذا البلد بلدنا » . . . ولكن لماذا فعلتم هذا ؟ هل لأنكم حططتم رحالكم هنا ؟ وهل إذا رسا أحد أبناء تاهيتى ذات يوم على شواطئكم، ونقش على حجر عندكم « هذا البلد تابع لأهل تاهيتى » فماذا عساكم ترون فى مثل هذا العمل ؟ .. إن هذا التاهيتى الذى تريدون أن تمسكو به وكأنه حيوان ليس أخاً لكم .. وأى حق لكم عليه ليس له حق مثله عليكم ؟ إنكم جئتم إلينا ، فهل سطونا عليكم ؟ وهل أعملنا السلب والنهب فى مراكبكم ؟.. كلا . لقد احترمنا ذاتنا فى شخصكم . . . اتركوا لنا عاداتنا وأعرافنا ، أنها أحكم وأشرف من عاداتكم وأعرافكم . وليست بنا من حاجة أو رغبة فى مقايضة ما تسمونه جهلنا بالمعرفة القيمة لديكم » (٤٨) .

ويمضى حكيم تاهيتى فيذكر الأوربيين بما قوبلوا به من ترحيب حار ، وكيف أسكنوهم وأطعموهم وأحبوهم . ولم يكن فى الجزيرة « وصية سادسة » (كما افترض ديدرو) كما لم يكن ثمة حقد ولا حسد . فلم يفهم نساء الجزيرة ما تحدث به قسيس السفينة عن الخطيئة والعار ، وأحطن البحارة بكل الكرم والرعاية .وماذا كانت النتيجة ؟ إن مرض الزهرى الذى لم يعرفه سكان الجزيرة من قبل ، ظهر الآن بين نسائها ، ثم انتقل إلى رجالها . ويتوسل الرجل العجوز إلى الزائرين أن يرحلوا إلى غير رجعة .

وأضاف ديدرو « مناقشة بين القسيس وأورو « وهو مواطن من تاهيتى كان قد تعلم الأسبانية ، صدرت إليه الأوامر بايواء القسيس فى كوخه . ويعرض أورو على القسيس أن يختار لمشاركته فراشه بين زوجته وإحدى بناته ، ويوضح القسيس أن قانونه الأخلاقى يحرم عليه قبول مثل هذا العرض الكريم . ولكن إحدى البنات تمسه بيدها فيصبح رجلا . ويقضى القسيس الأيام الثلاثة التالية يشرح لأورو الأخلاق المسيحية والليالى الثلاث التالية مضاجعا البنات واحدة بعد الأخرى ، أما الليلة الرابعة ، وكأنما ارتبط بكلمة الشرف ، فأنه يخصصها لزوجة مضيفة (٤٩)وأمدت محاولات القسيس لتحويل أورو إلى المسيحية ديدرو بصحيفة سارة بهيجة .

القسيس — ما هو الزواج عندكم ؟

أورو — اتفاق على المشاركة فى كوخ واحد ، والمشاركة فى سرير واحد كلما طاب لنا أن نفعل ذلك .

القسيس — وإذا رغبتم عن ذلك

أورو — نفترق :

القسيس — وماذا يحدث للأبناء ؟

فيقول أورو إن هذه ليست مشكلة : تعود السيدة بأبنائها إلى بيت أبيها ، وسرعان ما يتزوجها رجل آخر يسعد بقبول أبنائها ، لأن الأولاد فى المجتمع الزراعى كسب اقتصادى عظيم .

القسيس — هل يستطيع الوالد أن يضاجع ابنته ؛ والوالدة ابنها ، والأخ أخته والزوج زوجة رجل آخر ؟

أورو — ولم لا ؟

القسيس — أظن أنه حتى هنا — مهما يكن من أمر ، لا يضاجع الأبن أمه غالباً .

أورو — لا . اللهم إلا إذا كان احترام هذا الأبن لأمه شديدا[٥٠]

ويخرج القسيس من هذا وهو يكاد يحبذ كل التحبيذ طرق معيشة أهل تاهيتى ، ويقر بأنه « أغرى بخلع ملابسه الكهنوتية فى السفينة ليقضى بقية أيام حياته بين أبناء الطبيعة هؤلاء .

وينتهى ديدرو إلى مثل ما انتهى إليه صديقه القديم روسو ، الذى كان يناقش فى كتابه « بحث فى الفنون والعلوم » (١٧٥٠) و « بحث فى منشأ عدم المساواة» (١٧٥٥) « هل تريدون لمحة موجزة عن كل تعاستنا وشقائنا تقريبا؟ هاكم هذه اللمحة . لقد وجد إنسان طبيعى ثم أدخل إلى هذا الإنسان الطبيعى إنسان صناعى ، ونشبت حرب أهلية استمرت طيلة الحياة . . وكان الإنسان الطبيعى فى بعض الأحيان هو الأقوى ، كما حطمه فى أحيان أخرى الإنسان

الصناعى الأخلاقى . وفى كلتا الحالتين يعامل العملاق بقسوة ويضيق عليه الخناق ويعذب ، ويسام الخسف .. إنه دائما تعس منكوب » (٥١) .

وكان ديدرو بطبيعة الحال لا يعرف إلا القليل عن أهل تاهيتى ، وكان بوجينفيل قد وصفهم بأنهم متمسكون بالخرافات والمحرمات ، يرهبون أرواحاً شريرة خيالية ، يستسلمون للكهنة ، ناهيك بالعديد من أنواع الحشرات والأمراض . إن ديدرو الذى كان يضيق ذرعا بالزواج بواحدة ، لم يكن فى حاجة إلى أن يدرك لماذا وضعت ضرورات النظام الاجتماعى مثل هذه القيود الكثيرة على الغرائز الجنسية غير المشروعة لدى الجنس للبشرى ، وكان نموذجا آخر للفكر الفردى الذى يتصور نفسه أحكم وأعقل من عادات البشر وأعرافهم .

وثمة تناقض طريف بين الفلسفة الأخلاقية عند ديدرو الكاتب وديدرو الإنسان من الناحية النظرية ، وفى بعض الأحيال أشرفت آراؤه الأخلاقية على الفوضوية ، ففى تلك الأوقات وصف الطبيعة البشرية بأنها خيرة فى أساسها ، وبناء على هذا الفرض اقترح « إن نتبع الطبيعة أى الغريزة ، وأحس ديدرو أنه عن طريق الغرائز وحدها يمكن للانسان أن يحرر نفسه من القيود التى يفرضها الدين والمجتمع بآلاف التقاليد والمحظورات والقوانين . وفى هذا المزاج وصف الاتصال الجنسى بأنه « أعلى مراتب السعادة » (٥٢) ، وعرف الجب بأنه « احتكاك شهوانى بين غشائين » و « فقدان شهوانى لبضع قطرات من السائل » (٥٣) وأكد لخليلته أن الزنى « خطأ يستحق لوما أو توبيخا أقل مما تستحق أتفه كذبة(٥٤) . كان ديدرو فيلسوفا يتوق إلى أن يحيا حياة الديك الذى يختال عجباً بين الدجاجات .

ولما عركه الدهر وزادت خبرته بالحياة نقض كل آرائه الأخلاقية . ومنذ انحرف عن روسو إلى فولتير ، فأنه نظر إلى الإنسان نظرة تزداد كآبة وقتا ما ، على أنه شرير سىء بالطبيعة . أو بسبب تدهور النظام الاجتماعى على حد سواء . « وليس ثمة شىء يوضح أن الطبيعة البشرية كريهة بغيضة ؛

مثل السهولة التى يتقبل بها الناس أسوأ الأعمال حين لا يكون (كما هو الحال فى حشد منهم) .. هناك من هو مسئول شخصياً عن الشر الذى وقع [٥٥] ويقول جاك المؤمن بالقضاء والقدر : « صدقنى نحن لا نشفق على أحد إلا على أنفسنا » [٥٦] ويلغى ديدرو الآن مبالغاته القديمة بمبالغات جديدة . فربما « لوى الإنسان الطبيعى عنق أبيه ليضاجع أمه ، لولا تنمية عقله يفضل التعلم [٥٧] ولما تضاءلت حاجيات ديدرو الجنسية ، اتفق مع ابيقور على أن « ملذات أو مباهج النفس » مرضية بشكل أكثر اطرادا من الملذات الجنسية ، أو المادية [٥٨] وهو يتساءل « هل هناك متعة أو لذة مادية فحسب فى اقتناء امرأة جميلة ؟ وهل هناك ألم مادى فحسب فى فقدها بسبب الموت أو التحول عنها ؟ أليس التميز بين المادى والمعنوى قائماً وطيدا مثل التميز بين الحيوان الدقيق الذى لا يرى إلا بالميكرسكوب والذى يحس ، وبين الحيوان الذى يفكر ويتأمل ويعقل [٥٩] .

وإذ وصل الآن ديدرو إلى المفهوم البيولوجى للفضيلة — صفة تعمل على البقاء ، فقد تسنى له فى شىء من الغموض أن يدرك أن اسمى الفضائل هى تلك التى تعمل على بقاء المجموعة ، حيث أن التنظيم الاجتماعى هو الوسيلة الرئيسية لبقاء الفرد ، وفى قصة « أين أخى رامو » تبين ديدرو ماذا يحدث لمن يحاول تحطيم القيود المفروضة على الفرد من أجل الاحتفاظ بالجماعة أو الإبقاء عليها . ومثل هذا الإنسان يصبح كما مهملا ومنبوذا بغير عقيدة أو طعام أو زوجة أو أمل . وبذلك يختتم ديدرو حلمه عن تاهيتى بشىء من الاعتدال فى بطء : « إننا سوف نندد بالقوانين الوحشية حتى يتم إصلاحها ولكنا فى نفس الوقت سنخضع لها . إن من يكون من سلطته أن ينتهك حرمة قانون سىء يعطى لكل إنسان غيره الحق فى انتهاك حرمة القانون الصالح إنه أقل إزعاجا أن تكون مجنـــونا بين المجانين من أن تكون عاقـــلا بمفردك» [٦٠] .

وعندما اكتملت وبرزت مفاتن الأنوثة فى أنجليك ابنة ديدرو ، بدأ

يساوره القلق بشأن أخلاقها، وكان يقظا حريصا على عذريتها باعتبارها ذخرا ثمينا وسلعة رائجة . ولما رأى أنه قد تم زواجها فى أمان ، حذرها من الزنى ، قائلا إن مجرد الارتياب فى خيانتها لزوجها سيقتل الزوج كمدا ، وستقضى عليه بسبب الخزى والفضيحة . (٦١) وفى نقده للفنون عاب على الفنان بوشيه فساده وفسقه ، وامتدح التواضع وغيره من الفضائل المسيحية كما صورها جريز وشاردان . وبشر ديدرو فى رواياته بالفضائل القديمة مثل أى برجوازى راسخ الأركان مزدهر الأحوال . وتسلى ديدرو ببعض قطع من المرح الطائش مثل « ملحق رحلة بوجينفيل » وبعض المرح الصاخب وشطحات الخيال على مائدة العشاء عند دى هولباخ . حتى إذا عاد أدراجه إلى بيته أصر على الاستمساك بكل فضائل الطبقة الوسطى ، وحاول أن يمارسها إذا أجيز له شىء من الزنى على نطاق ضيق فقط .

وكانت أفكارة السياسية مهوشة مثل آرائه فى الأخلاق ، وسلم هو بهذا فى صراحته المحببة . ولم يتفق مع فولتير فى أن الملك المستنير هو أفضل أداة ممكنة للأصلاح . واتهم فردريك الأكبر بأنه طاغية ، وحاول أن يحول كاترين الكبرى إلى الأفكار الديموقراطية . ووافق على الملكيةالدستورية ولكنه اقترح جمعية وطنية ينتخبها الملاك لأن لهم سندا أو مصلحة فى حكومة اقتصادية صالحة . (٦٢) (وعندما كتب هذا لم يكن من المتصور أن يكون بديلا ممكنا للأرستقراطية فى حكومة فرنسا إلا الطبقة المتوسطة من الملاك) وحلم ديدرو بمجتمع كريم تتحقق فيه للجميع الحرية والمساواة كلتاهما (وهما العدوان الطبيعيان) ولكنه ارتاب فى جدوى أية اصلاحات ، حتى يرفع انتشار التعليم من مستوى تفكير الناس وعقولهم ( )

(*) الأبيات التى كثيرا ما اقتبست وشوهت هى : وقد تلوى يداه أحشاء الكاهن ، لعدم وجود حبل لشنق الملوك « وضعها ديدرو عن لسان أحد المتعصبين فى رواية « المجانين بالحرية » ولا يمكن أن تؤخذ على أنها وجهة نظر ديدرو ، لأنه استنكر صراحة قتل الملك : « لا يجوز أن يرى الشعب=

وكانت آراؤه الاقتصادية متطرفة من الناحية النظرية ، معتدلة عند التطبيق ، وحتى فى سنى الشيخوخة تعاق ديدرو بشيوعية فوضوية ، مثلا أعلى له : « إنى مقتنع بأنه لن يتيسر للجنس البشرى أية سعادة حقيقية الا فى دولة اشتراكية ليس فيها ملك ولا قاضى ولا قسيس ولا قوانين ،ولا يكون فيها هذا لك ، وهذا لى ، وليس فيها حق تملك ، وليس فيها رذائل أو فضائل [٦٥] ولكنه اعترف بأن هذه النظرية « مثالية إلى حد شيطانى»[٦٦] وتعجب أبن أخى رامو قائلا « أى اقتصاد اجتماعى شيطانى عندنا ! فهناك أناس يتوافر لديهم كل شىء إلى حد التخمة ، على حين هناك آخرون يتضورون جوعا ولا يجدون ما يتبلغون به » [٦٧] وأدرك ديدرو فى ساعات العسرة أن عدم المساواة فى التملك سيبقى ببقاء عدم المساواة أو التكافؤ فى القدرات ، وطرح فكرة الاشتراكية لأنها غيرعملية ، حيث لم يوجد انذاك إلا بروليتاريا صغيرة غير منظمة لا تكاد تكون واعية ، ولكن راوده الأمل فى أن يرتفع مستوى هؤلاء العمال ويتحسن وضعهم وشيكا . ولما انتهى الأمر إلى الاصلاحات العملية ، أيد ديدرو الفيزيوقراطيين ووقف إلى جانب الرأسمالية الناشئة . وأعلن أن حق التملك يجب أن يكون مقدسا مطلقا ، واستنكر أى اعتداء على هذا الحق من جانب الدولة . وانضم إلى كنى وترجو وفولتير فى الدعوة إلى تحرير الصناعة والتجارة من أية قيود حكومية [٦٨] .

وحبذ الإعانات الحكومية للزراعة بوصفها أكثر فروع الاقتصاد حيوية وأهمية ، على حين أنها أيضا أكثر الفروع وقوعا تحت رحمة سائر الفروع [٦٩] . إن ديدرو مثلنا جميعاً أصبح أكثر محافظة (على القديم) كلما تقدمت به السن وزاد دخله .

= الدم الملكى مسفوحا لأى سبب مهما يكن[٦٤] ولا يمكن أن يكون لهذه الأبيات أى تأثير على مصير لويس السادس عشر ، لأنها لم تنشر إلا فى ١٧٩٥ .

٦ — ديدرو والفن

ن هذا العلاج المتجول للاهوت والأخلاق والسياسة والاقتصاد لا يشكل إلا بعض جوانب يسيرة من ديدرو المتعدد الاهتمامات والأنشطة ، فهناك غير هذا كثير . ومن كان يظن أن هذا الرجل الفظ الذى يزدحم رأسه بأفكار كثيرة سيصبح بين عشية وضحاها أعظم ناقد فنى فى عصره ؟ .

فى ١٧٥٩ كان صديقه جريم مشغولا بشئون الحرب وبمدام دى ابيناى ، فطلب إلى ديدرو أن يقوم مقامه فى تغطية أنباء معارض بينالى الرسم والنحت فى اللوفر من أجل قراء « كورسبوندانس — الرسالة » التى كان يصدرها جريم . وذكر ديدرو أنباء المعارض فيما بين عامى ١٧٥٩ — ١٧٧١ ، وعامى ١٧٧٥ — ١٧٨١ وكان فى بعض الأحيان يسهب فى ذلك أيما اسهاب لأنه كان فى هذه المذكرات يطلق لقلمه العنان ليعرض لكل مظاهر الحياة البشرية تقريبا. ولم يظهر فى مجال النقدالفنى شىء بمثل هذه القوة والصراحة وفى الصميم . وجاء بعض هذا النقد فى صيغة محادثات مع الرسامين أنفسهم فى المعرض أو على شكل رسالة شخصية إلى جريم . كما حدث فى ١٧٦١ : هاك ياصديقى الأفكار التى جالت بخاطرى عندما شاهدت اللوحات والرسوم الموجودة فى معرض هذا العام . ولقد دونتها دون أن أعنى كثيراً بفحصها أو التدقيق فيها أو إيضاحها .. وكل ما كان يدور بخلدى هو أن أوفر لك شيئا من الوقت تستغله استغلالا أفضل [٧٠] .

وأقبل على مهمته الجديدة فى ابتهاج متحمس ، وشكر لجريم إرغامه أياه على أن ينظر إلى الفن المعروض لا نظرة الجمهور العابرة ، أى نظرة سطحية زائفة ، بل العزم الأكيد على دراسة كل رسم وكل تمثال ، حتى شعر بحق بالبراعة الفنية فى العمل المعروض وقيمته وأهميته . ولم يكن ديدور معداً من الناحية الفنية ولكنه تحدث إلى الفنانين أنفسهم — شاردان لاتور ، كوشان ، فلكونيه . . . ودرس طريقتهم فى التأليف والعمل ،

وشغل الفرشاة والتلوين . « فتحت قلبي للاثار التى ينتجها جهد الفنان ، وأدركت سحر الضوء والظل وعرفت اللون ، واكتسبت شعور الجسد (٧١)

وأصبح ديدرو آخر الأمر ناقداً قديراً للأسلوب الفني ولكنه أنكر أية معرفة تقنية أوفنية ، فإنه عرض أن يقول ماذا يعنى عنده كل عمل فنى ، فعمد بادىء ذى بدء إلى شرح الموضوع أوالقصة فى شىء من التفصيل ، حيث أن بعض قراء جريم لم يكن يتيسر لهم قط رؤية القطع الفنية التى هى موضوع البحث ، كما أن نفراً منهم اشتروا اللوحات على أية حال ، بناء على تقريظ ديدورلها . إنه غالباً ما يتخيل ثم يعيد كتابة المسرحية الحية التى لم يمثل منها الفنان إلا اللحظة المعبرة المركزة . وحول فى بعض الأحيان الفن إلى أدب ، ثم تباهى آخر الأمر بقوله . « إن شاردان ولاجرينيه ، وجريز وغيرهم . . . أكدوا لى أننى الأديب الوحيد الذى يمكن لصوره أن تمر على قطعة القماش المعدة للرسم مثلما تعاقبت فى رأسك الواحدة بعد الأخرى تقريباً (٧٢) .

إن ديدرو أوضح ما يحب وما يكره ، أو مايؤثره وما لايعجبه بصراحة لا خجل فيها. إنه بعد أن استنكر كل شىء تقريباً فى المدنية الفرنسية المعاصرة عاد فدافع عن الرسامين الفرنسيين فى حماسة مشربة بحب الوطن . ورمى هوجارت بالكذب والجهالة لأنه قال إن فرنسا ليس فيها رسامون برعوا فى استخدام الألوان ، ورد على ذلك بقوله « ربماكان شاردان من أبرع من استخدموا الألوان فى كل عصور فن الرسم » (٧٣) وكان قاسياً مع ناتييه وعاب على بوشيه لوحاته العارية ولكنه استمتع بها . وبعد أن نقد العيوب فى إحدى هذه اللوحات قال « كله يستوى عندى فلاحصل عليها كما هى ، ولا أظن أنى سأضيع الوقت فى الشكوى من أن شعرها فاحم إلى حد بالغ . وأغضبته لوحة تمثل يوسف يرفض عروض زوجة بوتيفار « لايمكن أن أتخيل ماذا كان يريد ، وما كنت أنا أتطلب شيئاً خيراً من هذا ،

وغالباً ما أرتضيت أقل منه (٧٤) وأبدى عطفاً نحو الفنانين الذين يرسمون الصور العارية ، وبصفة خاصة نحو المثالين الذين يصبونها . وفوق كل هذا « ماذا تفعل فى التماثيل بالأزرار والنفثات(٧٥) وأحب صور جريز التى تمثل براءة الفتيات وشارك جريز نزعته العاطفية وبصفة خاصة قدر لوحاته التى رسمها لزوجته التى كانت عشيقة ديدرو أيام شبابه . واستساغ المناظر الطبيعية الموحشة فى الفن الهوالندى والفلمنكى ، ووجد شعراً أكثر فى شجرة بمفردها تعانى من كر السنين وتعاقب الفصول ، منه فى واجهة قصر منيف فلابد أن يكون القصر أطلالا حتى يثير الاهتمام وتكون اللوحة مشوقة (٧٦) واستهجن التوكيد القديم الكلاسيكى — التقليدى على العقلانية والنظام والتناسق ، وامتدح الخيال الخلاق وأثره على التفكير التحليلى . ودعا إلى « تآليف مرعبة أو حسية ... تنقل الحب أو الرعب إلى أعماق القلب وتذيب الحواس وتطهر النفس ، فثمة شىء فى هذا الذى لا يمكن أن تحققه أية قواعد .(٧٧) واحتقر فكرة « الفن للفن » فكان يرى أن للفن مهمة أخلاقية هى « تمجيد الفضيلة والتنديد بالرذيلة (٧٨) .

وكان ديدرو واثقاً من ملاحظاته على معرض ١٧٦٥ إلى حد أنه أضاف إليها مقالا عن الرسم « ووجد مثل أفلاطون وأرسطو ، إن جوهر الجمال يكمن فى علاقة التناسق بين الأجزاء فى كل واحد ، ولكنه ارتأى أن يضاف إليها أيضاً تناسق بين الشىء وبيئته والغرض المقصود منه . ومن الوجهة المثالية عرف الجمال بأنه تكيف كامل مع الوظيفة فالإنسان الذكى الصحيح الجسم لابد أن يبدو جميلا ، وينبغى على الفن أن يختار فى منظرها ، المعالم والقسمات التى تحدد مغزاه ، كما ينبغى أن يستبعد العناصر التى لاعلاقة لها ، وليس ثمة ما يدعو إلى أن يكون الفن تقليداً صاغراً حقيراً للهدف والواقع ومع ذلك يجدر بالفنان أن يدرس الشىء الطبيعى لا النماذج القديمة أو القواعد الشكلية فإن تنيير Teniers واحد خير من إثنى عشر واتو Watteau خياليين . وأحس ديدرو بشىء من التنافر بين الفن والعقل ، وتبين له أن

قواعد بوالو التقليدية الكلاسيكية قد عوقت الشعر الفرنسى أو أصابته بالشلل. وهنا خالف فولتير لينضم إلى روسو فى أن الفن يجب أن يكون فوق كل شىء صوت الوجدان ونتاجه . لذلك رفع من شأن اللون على حين أن رينولدز فى نفس العقد من السنن كان يطرى التصميم . وسلم ديدرو بأن التصميم يعطى الكائنات شكلا ولكن اللون يعطيها حياة[٧٩] . ووجد جوته فى هذا المقال أشياء كثيرة بدا له أنها خطأ ، ولكنه ترجم نبذا منها ووصفها لشيلر « بأنها عمل رائع ، أنها تتحدث بشكل أنفع حتى للشاعر منه للرسام ، ولو أنها للرسام كذلك مشعل قوى الضوء يهديه على الطريق[٨٠] » .

٧ — ديدرو والمسرح

كتب ديدرو يقول « ترددت عندما كنت شابا ، بين السوربون (الكهنوت) والمسرح[٨١] . وفى ١٧٧٤ كنت قد قضيت نحو ثلاثين عاماً أكتب الموسوعة على غير هوى منى ، وكتبت روايتين أثنتين[٨٢] » وأولى إهتماما أكبر لرواياته منه لقصصه . ولما كان معظم قصصه لم ينشر إلا بعد وفاته فقد كان لرواياته أثر أكبر على شهرته وعلى حياته ، كما أنها شكلت ما يقرب من الثورة فى تاريخ المسرح الفرنسى .

وكان ديدرو قد قرأ فى شغف زائد قصص ريتشاردسن . وفى ١٧٦١ كتب مقالة « فى مدح ريتشاردسن سما فيها إلى التغنى بالثناء على الرجل الإنجليزى ، لأنه ينفخ فى القارىء من روحه ويغرس الفضائل ، كما أنه أوتى الشجاعة ليصور حياة الطبقة الوسطى الجديرة بفن جاد وفوق هذا كان ديدرو قد تأثر برواية جورج للو Lillo « تاجر لندن » (١٧٣١) التى كانت قد أبرزت بنجاح عواطف طبقة رجال الأعمال وبلاياهم على المسرح الإنجليزى. وقال أن الرواية « من مستوى رفيع » حتى لوقورنت بسوفوكليس . لماذا لا تكون القلوب الكسيره جديرة بمسرحية « مأساوية على الرغم من أنها ليست من ذوات الحسب والنسب ؟ وعندما لجأ ديدرو إلى تأليف الروايات فى الأسلوب الجاد نراه قد أزعج وروع التقاليد الفرنسية بأستخدامه لروايته

شخوصا من الطبقة الوسطى وبالكتابة نثرا . وهكذا أرسل إلى المسرح والمطبعة فى ١٧٥٧ « الأبن الطبيعى أو المحرومون من الفضيلة ولم تلق نجاحا على خشبة المسرح ، ومثلت مرتين فى الأقاليم (١٧٥٧) ولم تمثل إلا ١٧٧١ فى باريس ، وواضح أنها مثلت مرة واحدة آنذاك ولكنها كانت حدثا هاما وحققت نجاحاً وروا جا وهى مطبوعة فى كتاب .

والقصة ممتعة إلى حد كبير فإن دورفال الأبن غير الشرعى المتمسك بالفضيلة الذى يعيش فى بجبوحة ، يجد نفسه قد وقع فى غرام روزالى المخطوبه لمضيفة كليرفيل ، ويحس دورفال أن الفتاة تبادله حبه فيعتزم أن ينأى بنفسه حتى لا يحطم زواج صديقة . وعندما كان على وشك مغادرة المكان رأى رجالا مسلحين يهاجمون كليرفيل ، فاشتبك فى قتال معهم وأنقذ حياة صديقة وعندما علم بأن والد روزالى التاجر فقد كل ثروته ولم يعد يستطيع أن يقدم لهـــا صداقا ، فأنه يعوض الخسارة خفية ومن ثم أصبح التاجر المفلس والد دورفال ووالد روزالى معاً ، وتوطن النفس على أن تكون أختاله وتتزوج من كليرفيل ، ويتزوج دورفال من أخت صديقه كنستانس وتختتم الرواية وقد غمرت الجميع دموع الفرح . وهذا كان اسهام ديدرو فيما كان النقاد قد أسموه بالفعل « مسرحية الدموع » .

أن الذى هيأ للرواية مكانا فى التاريخ الفرنسى سلسلة من الحوادث نشرت معها ، سميت فيما بعد « مناقشات حول الأبن الطبيعى » وجرت تقاليد المسرح الفرنسى على أن المسرحية الجادة (تمييزاً لها عن الهزلية) يجب أن تقتصر على أشخاص النبلاء ويجب أن تكتب شعرا . وأوضح ديدرو آنذاك فكرته فى أن المسرحية الجادة ينبغى إلا تخشى إستخدام شخوص وأعمال رمهن برجوازية ومشاهد من حياة الأسرة وللبيت فى شكل واقعى ، مع كتابة الرواية نثراً . ورأى ديدرو أن يبين أن عبارة « سيد مهذب من الطبقة الوسطى » ليست التناقص اللفظى الساخر الذى كان قد ارتآه موليير ، ولكنه تطور المجتمع الجديد الذى تصاعدت فيه ثروة البرجوازية ومكانتها وسلطتها ، واحتج بأنه

يجدر بالكاتب المسرحى إلا يعرض كثيراً من الدراسة للشخصية بل كثيراً من ظروف الحياة الواقعية فى الأسرة ، فى الجيش ، فى السياسة ، فى المهن، بل حتى فى الصناعة . وحيث كانت الطبقات الوسطى منبع الفضيلة فى فرنسا فقد أصر ديدرو على أن يكون من وظائف المسرحية الجديدة أن تغرس فى الناس حب الفضيلة ومقت الرذيلة « ودمغ الفن المقصود به مجرد الترفيه بأنه ترف الطبقة الخاملة » فلابد أن يكون لكل فن وظيفة وفائدة اجتماعية . وأى هدف أن يسعى المسرح إلى تحقيقه أفضل من أن يكسو الفضيلة فتنة وسحراً وجلالا !

أن الرواية وما صاحبها من بيانات وتصريحات فرقت أهل الفكر فى باريس إلى معسكرات متنابذة ، وتناول باليسو وغيره من أعداء الفلاسفة آراء ديدرو بالتسفيه والتسخيف . أما فريرون فأنه لم ينقد الرواية بأنها تعليمية جافة كئيبة متبلة ببعض المشاعر والفضائل الزائفه فحسب ، بل أنه كذلك أوضح فى إعداد متواليه من « السنة الأدبية » التى كان يصدرها تشابها مريبابين النصف الأول من « الأبن الطبيعى » وبين كوميديا « الصديق الحق » التى كان جولدونى قد مثلها فى البندقية ١٧٥٠ . وأعترف ديدرو بقوله : لقد إستحوذت عليها وكأنها ملك خاص بى ولم يكن جولدونى أكثر تدقيقا فأنه إستحوذ على رواية موليير « البخيل » . وما كان يدور بخلد أحد أن هذا غير لائق . ولم يحلم أحد منا باتهام موليير أو كورنى بالسطو والأنتحال لأنه أقتبس ضمنا فكرة أحدى الروايات من مؤلف إيطالى أو مسرح أسبانى(٨٣) .

وهذا يصدق بطبيعة الحال على رواية كورنى « السيد Lecid » ورواية موليير « مأدبة الصخرة » Le Feslin de Pierre (دون جوان) .

وبتشجيع من الأصدقاء وتحديا للأعداء ، ووسط أشدما يلاقى من عناء فى الموسوعة ، ألف ديدرو ونشر (١٧٥٨) رواية أخرى أسمها « رب الأسرة » وأضاف إليها موضوعا أثار الغضب : بحث فى الشعر المسرحى ، وهو عنوان يذكرنا بالعنوان الذى إستخدمه دريدن لبحث مماثل منذ تسعين

عاماً . وأخرجت الرواية فى تولوز ومرسيليا فى ١٧٦٠ ، وعلى « المسرح الفرنسى » فى باريس فى فبراياً ١٧٦١ ، حيث مثلت سبع ليال مما أعتبر نجاحا متواضعا . ووافق فولتير على تأجيل عرض مسرحيته Tancrede من أجل رواية ديدرو هذه، وكتب إلى منافسه الجديد « أيها الأخ العزيز ديدرو ، تخليت لك عن مكانى عن طيب خاطر وبودى أن أتوجك باكليل الغار » فرد عليه ديدرو « شكرا لك يا أستاذى العزيز وأنى لأعلم كم كنت ترغب فى أن يلاقى تلميذك نجاحا . وقد تأثرت لهـــذا كثيراً، لك حبي وأحترامى إلى أخر لحظة فى حياتى[٨٤] » وأعيد تمثيل الرواية من جديد بنجاح فى ١٧٦٩ على المسرح الفرنسى وأصبحت عنصرا هزيلا فى إنتصار الفلاسفة .

وموضوع الرواية يتصل إلى حد ما بالسيرة الذاتية ، فالوالد تذكير جميل بديدييه ديدرو ، اللهم إلا فى أنه يحظ أكثر كثيراً مما قيل لنا عن الرجل الطيب ديدييه : أما الابن سانت ألبان (وهو صورة قريبة جداً من دنيس ديدرو) فانه يسعى فى الحصول على موافقة أبويه على زواجه من صوفيا ، وهى إحدى بنات الطبقة العاملة ، ويوافق الولد على أن يراها ويحبها ، ولكنه يرفض أن يتزوج إبنه بمثل هذه البنت الفقيرة . وبعد خمسة فصول وبمحض الصدفة التى خدمت ألف مسرحية يتبين أن هذه الشابة إبنة أسرة كريمة ويرق قلب الوالد ويجرى كل شىء على مايرام ويمكن أن يغتفر لفريرون قوله أن الرواية مثيرة ميكانيكية سخيفة . وأثار أحد النقاد إلى أن التغنى بالفضيلة كان مقصوداً به جريم الذى كان يشارك روسو إحدى البغايا ، وكان الآن عشيق مدام أبيناى ، وأن ديدرو أطلق على بطلة روايته إسم هذه العشيقة م صوفى فوللان Volland أما فولتير فانه على حين إمتدح المؤلف على مافى الرواية من « أشياء رقيقة فاضلة » كتب إلى مدام ديفان يتساءل « هل قرأ لك أحد رواية رب الأسرة ؟ أليست مضحكة تدعو إلى السخرية ؟ أن قرننا ، فيما يختص بالعقيدة والايمـــــان فقير، إذا قورن بقرن لويس الرابع عشر »[٨٥].

ومهما يكن من أمر فإن ديدرو أحس بأن مسرحية القرن السابع عشر فى فرنسا كانت على شكل غير طبيعى تماماً فى أسلوبها الخطابى الحماسى الطنان الرنان ، وفى وحداتها المحكمة المتزمتة فى العمل والمكان والزمان ، وفى تقليدها الكئيب للروايات الكلاسيكية القديمة لا الواقع الحى ، وكانت رواياته وهى عاطفية حسية دون موازنة أوخجل بشائر رد الفعل الرومانتيكى ضد المذهب العقلى والكبت العاطفى فى العصر الكلاسيكى ، وكان تأثير ديدرو محسوساً أيضاً فى الواقعية المتزايدة فى إعداد المسرح تبعاً لمختلف الفصول ، وفى دقة ملابس الممثلين بالنسبة لعصور التاريخ وفى الحفاظ على الخصائص القومية فى النطق . واشترك ديدرو مع فولتير فى الحملة التى شنها لاخلاء خشبة المسرح من النظارة . وقال جوستاف لانسون إن كل تحسين طرأ على فن الإخراج فى المائة والخمسين عاماً الماضية نبع من ديدرو»[٨٧] اللهم إلا أن المناظر الآن تميل إلى أن تكون تخيلية أكثر منها واقعية . وكذلك تجاوبت ألمانيا مع ديدرو الذى أطلق عليه سانت بيف أقرب الفرنسيين إلى الألمان . وترجم لسنج رب الأسرة والمقالات المسرحية ، وصرح بأنه ليس ثمة ذهن أكثر ميلا إلى الفلسفة وتأثراً بها إنشغل بالمسرح منذ عهد أرسطو إلا ديدرو[٨٨].

الكوميدى كذلك كان لديدرو رأيه فى فن التمثيل المسرحى ، وفى مقال طابعه التحدى تحت عنوان « تناقض حول الممثل الكوميدى » ١٧٧٨ اعترض على القول بأنه من أجل تحريك شعور جمهور المتفرجين والتأثر فيهم يجب على الممثل ألا يستسلم للعاطفة التى يعبر عنها بل يجب أن يكون هادئاً رابط الجأش ، وهذا بالطبع تسفية لرأى هوراس الذى نصح الشعراء بقوله « إذا أردتمونى أن أبكى فلتجهشوا أولا بالبكاء » . ويرد عليه ديدرو : « يجدر بالممثل أن يضم بين جنبيه مشاهداً أو متفرجاً لايتأثر وغير متحيز . ويجب أن يكون لديه حسن الإدراك والتمييز ، لا الحساسية . . . وإذا كان الممثل مليئاً حقاً بالشعور والوجدان فكيف يمثل نفس الدور مرتين بنفس الروح ونفس النجاح ؟ وإذا كان ممتلئاً حماسة ونشاطاً فى العرض

الأول ، فلابد أن يهن ما اشتد من قوته أو يصبح جامداً كالصخر فى العرض الثالث ، أملأ المسرح بأناس يذرفون الدموع ، ولكنى لا أسمح لأحد منهم بأن يكون على خشبته (ممثلا)[٨٩] .وتلك نصيحة قلما إتبعها ممثلو مسرحيات ديدرو . وكان ثمة تناقض فى ديدرو نفسه ، ذلك أنه فى ١٧٥٧ كتب يقول إن الشعراء والممثلين يحسون بقوة ولكنهم لايعكسون إلاالقليل من أحاسيسهم[٩٠] ولكنه الآن يناقض نفسه ، وربما كان هذا راجعاً إلى أنه شاهد فى باريس فيما بين عامى ١٧٦٣/ ١٧٧٠ دافيد جارك Gorrick يثير إنفعالات وأحاسيس متباينة فى تعاقب سريع ، متى أراد . أو أنه كان قد وجد المفارقة فى هملت وهو يأمر الممثلين السنيور : « وسطالسيل والعاصفة (كما يمكن أن أقول) ودوامة الانفعال تذرعوا بشىء من الاعتدال الذى يضفى عليها شيئاً من الهدوء والرفق »[٩١] ورفض سير هنرى أرفنج تحليل ديدرو ولكن ناقدا حديثاً يعتقد أنه « ظل حتى اليوم أهم محاولة لمعالجة مشكلة التمثيل »[٩٢] . ويمكن أن يكون الممثلون عاطفين فى الحياة ولا يجوز أن يكونوا كذالك على خشبة المسرح . (وربما يؤدى ضبط النفس على المسرح إلى الانطلاق والتحرر فى الحياة ، ومن ثم يجب أن يغفر لهم خطايا كثيرة) . وينبغى عليهم أن يدرسوا الاحساس المعين فى أسبابه وعلله ، ويعبروا عنه بإيماءاتهم واشاراتهم وكلامهم . ولكن يجب « أن يتذكروا فى هدوء وسكون »[٩٣] . ووتوصل ديدرو إلى إيضاح الفرق فى رسالة إلى الآنسة جودان : « ن الممثل الذى لا يتحلى إلا بحسن التقدير والتميز فاتر بارد ، أما هذا الذى يتميز بالحيوية والحساسية فهو مجنون »[٩٤] .

إننا إذا ألقينا بنظرة إلى الوراء فى العرض غير المرتب الذى أوردناه لذهن ديدرو المشوش نغفر له إضطرابه وسط هذا العدد الوفير من الأفكار والآراء ومجالات إهتماماته . ولم يكن شىء من الانسانيات غريباً عليه أو بعيداً عنه ، اللهم إلا الدين . بل إنه حتى بالنسبة لهذا ، فأن ديدرو لم يخل من الشعور الدينى ؛ وكان من خصائص ديدرو أن يبدأ بالرياضيات والفيزياء

وينتهى بالمسرحية والموسيقى . ولم يكن فى مقدوره أن يكون من جهابذة العلوم ، لأنه لم يكن يطيق صبرا على البحث والتجربة ، ومن ثم قفز مبتهجاً إلى التعميمات . على أنها كانت كثيراً ما تنير العقل . وعرف من الموسيقى الشىء الكثير حتى أنه كتب عن طريقة إستعمال المفاتيح ، ورسالة عن علم الايقاع ، وألف أعظم الروايات أثراً وأحسن القصص فى عصره ، ويتفرق فى القصة القصيرة على كل معاصريه فيما عدا فولتير . ولكنه بز فولتير نفسه فى أنه أضفى على القصة القصيرة من تركيز الفكر والعمل ما حدد لها شكلها حتى يومنا هذا . وحيث أدمن ديدرو على الحديث والنقاش وتدرب على إرتياد المنتديات (الصالونات) فانه طور الحوار إلى درجة من الاشراق والحيوية ، نادراً ما سمع بها قبله أو بعده . وكتب فى الفلسفة ، ولكنه لم يكتب لغة غامضة للابراج العاجية ، وإنما كتب مناقشة حية فى موضوعات حية بين أناس إندفعوا إلى سعترك الحياة أو إلى خضم العالم راضين طائعين .

* * *

٨ — ديدرو

وراء هـــذا الذهن المتغير الأشكال والألوان ، كان ثمة إنسان تجمل بفضائل كثيرة ، كما أنه لم يبرأ من كل الأخطاء تقريباً ، مما لعب كل منها دوره على مسرح حياته ، وعند مارسم فانلو لوحة لديدرو ، أحتج هذا على أن الوجه فى الصورة لم يظهر من صاحبه إلا جزءا سريع الزوال ، فلم يبرز إلا مجرد تعبير واحد عن حالة نفسية واحدة أومزاج واحد وقال : إن لى مائة من التعبيرات المتباينة فى كل يوم ، تبعا لحالتى النفسية أو مزاجى فى كل لحظة : كنت هادئا حزينا حالما رقيقا عنيفا منفعلا متلهفا . أن العلامات الخارجية الظاهرة لحالات ذهنى الكثيرة المتباينة كانت تلاحق بعضها بعضا بسرعة على وجهى إلى حد أن عين المصور وقعت على شخص مختلف من لحظة إلى أخرى ولم تقع على الشخص الحقيقى قط[٩٥] » .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الوجوه الكثيرة أندمجت شيئا فشيئا فى قالب مركب ، وتركت له التقاطيع والقسمات المجعدة التى نراها فى اللوحة التى رسمها له جريز Greuze مثل قيصر أضناه الالتحام العنيف مع جيش من الأفكار والأعداء ، كما أرهقته محاولاته التعبير بأدق عبارة وأجلى بيأن عن قبوله أو رفضه أى عن قوله نعم أولا . وكان له حاجبان عاليان يطلان على رأس نصف أصلع واذنان كبيرتان وأنف كبير منحن ، ولسان ناطق وذقن متجلد ، وعينان سمراوان ، ثقيلتان حزينتان ، وكأنما تستذكران من الأخطاء مالا يجوز تذكره ، أو تتأكدان من عدم قابلية الخرافة للتخريب ، أو تلاحظان أرتفاع معدل السذاجة ، وكان أمام الناس عادة يضع شعرا مستعارا ، وقد يخلعه إذا نسى نفسه فى نشوة الحديث ، وقد يلعب به أو يضعه على حجره ، وكان مستغرقا فى الحياة ، ولم يكن لديه فسحة من الوقت للتظاهر .

ولم يذعن لأى إنسان فى تقدير أخلاقه . وسلم « بأنى قد يغلبنى التأثر لحظة ولا ألبث إلا قليلا حتى أعود سيرتى الأولى ، الإنسان الصريح الوديع

المنصف المتسامح الأمين المحسن الذى يأسر الناس بحسن صنيعه . أستمر من فضلك فى قصيدة المديح لأنها لم تكمل بعد . إنى لم أذكر شيئا بعد عن ذكائى». وساوره الشك فى أن يوجد على ظهر البسيطة إنسان أكثر منه أمانة . وكان واثقا من أنه حتى « أعمدة الكنيسة » تستطيع أن تعتمد على كلمته . وكتب إلى خلياته : « أية نفوس جميلة نفسك ونفسى ونفسه » وهنا أدخل جريم فى هذا الثالوث . وغمرته نشوة الفرح والأبتهاج وهـو يتحدث عن مؤلفاته ورواياته وأثقا من خلودها . وأعتقد أن أخلاقه قويمة . والحق أنه أحتفظ بسيدة واحدة فى وقت واحد . وتحدث عن نفسه على « أنه » الفيلسوف . « وسلم بوجود شبه بينه وبين سقراط وتساءل : « ماذا يهمنى إذا كنت أدين بمناقبى ومآثرى للطبيعة أو للخبرة مادامت ثابتة وطيدة ولن يفسدها الغرور[٩٦]

والواقع أن ديدرو تحلى بمعظم الفضائل التى نسبها لنفسه ، لقد كان أمينا بمعنى صريح ، ولو أنه أقترف كثيراً من الكذب فى شبابه . ولم يكن يتكلف أو يتظاهر ، وكان وديعا رفيعا ، اللهم إلا فى الحديث ، حيث كثيراً ما كان متهورا ، وفى بعض الأحيان خشنا جافا إلى حد كانت تضطر معه مدام جيوفرين إلى أن تنبهه إلى التزام النظام واللياقة . إنه يقينا كان شجاعا لأنه أستمر يناضل حين تخلى عنه الكثير من أصدقائه ، بل حتى نصحه فولتير بأن يكف . وكان منصفا اللهم إلا مع التقوى ومع روسو ، وقد ندرك فيما بعد أنه لم يكن يستسيع كثيراً حساسية جان جاك روسو . وكان كريما بلا منازع مستعدا لمعونة من يلجأون إليه ، أكثر ثناء وأطراء للناس منه لنفسه . وقضى أياما كثيرة فى القيام بأعمال جريم فى صحيفة كورسبندانس ، « وصياغة محاولات أصدقائه الأدبية فى الشكل الملائم . وساعد نفرا كبيراً من الفقراء بمنح قدمها إليهم من دخله المتواضع . وإذا عرض عليه أحد الصحفيين المحتاجين قطعة هجاء فى ديدرو نفسه طالبا إليه أن يراجعها معللا ذلك بأنه إنما يسعى وراء القوت أجابه ديدرو إلى طلبه وراجعها ونقحها . بل أقترح

عليه إهداءها إلى دوق أورليان الحالى الذى يوليني شرف كراهيته لى » وهذا ما حدث فعلا وأرسل الدوق للصحفى الناشىء خمسة وعشرين جنيها(٩٧). وكان متساهلا فى نقده للكتب واللوحات والرسوم (فيما خلا رسوم بوشيه) قائلا أنه يؤثر الأشاره إلى الأعمال الجيده على السخرية من الأعمال الرديئه(٩٨) » وكان أكثر الفلاسفة أنسا وودا . وأيد روسو حتى ١٧٥٨ ، وجريم حتى النهاية تقديراً من ديدرو لخلقه هو نفسه . وقالت مدام أبيناى أنهم تحدثوا عنه « بأعظم الأجلال والأحترام » وأعجبوا بعبقريته ، ولكن خلقه كان مثار حماسة خاصة بينهم . ويقول جريم إنه أكمل من عرف من البشر(٩٩) . وكانت أخطاؤه فى نظر مثل هؤلاء الاصدقاء أخطاء طفل صريح إلى حد السذاجه . وأعتبروا أنه أعمق من فولتير .

ومن المحقق أنه كان أكثر ثراء فى الأفكار من فولتير ، لأنه لم يكن ثمة قيود ولاضوابط فى بنيانه ، وكان أكثر خيالا وأقل عقلانية . وكان أكثر تهورا وطيشا ، ولم يكن ناضجا قط . يقول فولتير « أن ديدرو أتون شديد الحرارة إلى درجة يحترق معها كل ما يخبز فيه(١٠٠) » . ومع ذلك خرجت منه أشياء كثيرة لم يكتمل نضجها ولاخبزها ، وكان شديد الحساسية مثل روسو رقيق العاطفه مثله ، كما كان ، مستعدا ليبكى على جمال الطبيعة ومآسى الحياة وأعلن رأيه فى الدين وربما عبر هذا الرأى عن نفسه : أن فى ذرف الدموع بالنسبة للنفس الحساسة الرقيقة لذة وبهجة(١٠١) . ورآه زواره أحيانا بذرف الدمع — أو فى سورة غضب — على كتاب ، وربما كانت صداقته مع روسو قائمة على التماثل فى المشاعر ونفس قـــوة الوجدان ، ونفس حب الطبيعة ونفس المفهوم الرومانتيكى للعبقرية على أنها غريزه وأنفعال وخيال ، ونفس التحمس لقصص رتشاردسن . وتلهف على تحذير كلاريامن Loelace وعندما قرأ عن الملوك القساة كان من اليسير عليه أن يتخيل أنه يستخدم خنجراً فى سهولة عجيبة(١٠٢) أن فولتير + روسو = ديدرو . ولم يغفر أى من هذين الرجلين له أنه جمع بينهما كليهما ، على حين بقى هو فريدا مع نفسه .

وعبرت عاداته عن تناقص صفاته ، فأنه أحب الطعام إلى حد الشرة والأصابة بالحصى . ولكنه كان يقظا لكل النتاج الثقافى فى زمانه . وكره الترحال ولم يحبذه[١٠٣] ولكنه عبر قارة أوربا ليقدم إلى كاترين الثانية قيصرة روسيا شكره وتقديره ، وأنهمرت دموعه للشعر الجميل ، وانغمس في البذاءة الفاحشة ، وأحتقر المال وتحدث عن الفقر صديقا ملهما للفلاسفة ، ولكن عندما مات والده قصد إلى لا نجرز (١٧٥٩) ، وسر بحصوله على ثلث الركة . ومن ثم بلغ دخله فى ١٧٦٠ نحو أربعة الآف جنيه سنوياً . فقال عند ذاك « أنا فى حاجة إلى عربة وإلى مسكن مريح ، وإلى فراش وثير وإلى سيدة معطرة ، ومن ثم أستطيع بسهولة أن أصبر على بلايا دولتنا المتمدينة . أو هنا كبح جماح فولتير فى ديدرو ، وجماح روسو فيه وسخر منه .

وشغلت زوجته بالأمومة المثبطة للهمة وبأعمال البيت غير المعطرة إلى حد لم تستطع معه أن تلقى أذنا صاغية إلى أفكار زوجها وآرائه المتكاثرة . وجأر مثل ملتون بطلب الطلاق على أساس عدم التكافوء العقلى ، ولما لم يجيزوا له الطلاق لجـــأ إلى ما لايزال الفرنسيون يلجأون إليه ألا وهو إتخاذ خليله — وصفوة القول كانت هناك الآنسه بابوتى Babuti التى لازمته عشر سنين . وفى جريز Greuze ثم مدام بوسييه Puisieux التى لأزمته عشر سنين . وفى ١٧٥٥ وجد ضالته المنشودة فى سيدة شابة وفرت له لمدة ثمانية عشر عاماً الحب والأخلاص وحسن التفاهم . تلك هى لويز هنريت فوللان Volland ، وعاد فأطلق عليها أسم صوفى Sophie (لأنها بدت فى عينيه روح الحكمة) وكانت عندما التقيا لأول مرة فى الثامنه والثلاثين من عمرها غير متزوجه ريانة ممتلئة الجسم قصيرة البصر ، ووصفها بأنها تضع منظاراً على وجه « جاف » تقريباً . وكثيراً ما عنفها بين الحين والحين لأنها كانت تنافسه فى حب القراءة ، لكنها جمعت الكتب بدلا سن العشاق ، وقرأت كثيراً حتى فى السياسة والفلسفة ، وكانت حلوة الحديث ، ولكنها أستمعت أكثر ممـــا تحدثت ، ووجد ديدرو أن ساقيها غليظتان أكثر ممـــا ينبغى ، ولكنه كان

شاكرا لهـــا حسن أصغائها إليه ، مولعا بعقلها وقلبها . وكتب يوما إلى جريم يقول « آه ياعزيزى جريم ، أية سيدة هذه ! كم هى لطيفة جميلة أمينة رقيقة حساسة . ولسنا نعرف أكثر مما تأتى به هى من عادات وأخلاقيات ومشاعر فيما لا يحصى من الأشياء العامة . أن لها حكمها على الأشياء ، ووجهات نظرها وأراؤها وأفكارها وطريقة تفكيرها الخاصة بها ، كل أولئك قائم على العقل والحق وحسن الأدراك . ولا يثنيها عن شيء من ذلك الرأى العام أو السلطات أو أى شيء أخر[١٠٤] » ولا يمكن أن يكون كل هـــذا هياما وغراما ، أما جوهر الموضوع فإن دكتور ترونشين رأى فيها روح نسر تسكن بيتا من السحاب[١٠٥] أى أنها أحبت الثياب الفاخرة والتحليق فى سماء الفكر والعقل .

وكتب إليها ديدرو طيلة عشرين عاماً أرق رسائله التى ستظل من ذخائر القرن الثامن عشر الأدبية . وقد استطاع أن يكتب إليها فى كل شىء بصراحة ويرسل إليها قصصه الداعرة وآخر تأملاته وأفكاره . فكتب لها كما لو كان يتحدث إليها « إذا كنت بجوارك وذراعى يطوق ظهر مقعدك[١٠٦] » . وفى علاقته بها تحقق مما لم يتحقق من مثله قط من قبل : تحقق من الدور الذى يمكن أن يلعبه الوجدان والعاطفة فى الحياة ، وكاد أن يكون من العسير عليه إلا أن يؤمن بالجبرية (القضاء والقدر) وبدا بعيداً عن التصديق أن تبادلهما المزدوج للأخلاص والحب والأفكار نتيجة فيزيوكيميائية لسديم بدائى . واستطاع وهو فى مثل هذه الحالة النفسية أحياناً أن يتحدث حتى عن الله . وإنه ليروى لصوفيا كيف أنه بينما كان يسير فى الريف يوماً مع جريم التقط سنبلة من القمح وأستغرق فى التفكير فى سر النمو فسأله جريم « ماذا تفعل » ؟ فأجاب « استمع » « ولكن من الذى يكلمك ؟» فرد عليه « الله » [١٠٧]

وبعد اثنتى عشرة سنة من اتصاله بصوفيا فوللان فترحبه لها . وأصبحت رسائله إليها موجزة ، كما أصبح توكيد الإخلاص أكثر تكلفاً . وفى ١٧٦٩ وهو فى السابعة والخمسين ، خلف صديقه المتوفى داميلافيل عشيقاً لمدام دى مو ، وكانت فى الرابعة والخمسين ، وبعد عام واحد أزاح ديدرو عن مكانه عاشق شاب ، على أن دنيس (أى ديدرو) ظل فى الوقت نفسه يؤكد لصوفى حبه الأبدى.

وفى كل شطحات قلبه وذهنه احتملت زوجته أنطوانيت بكل الصدق والإخلاص ، ولم تكف عن لومه وتوبيخه . والتمست السلوى والعزاء فى الدين ولعب الورق ولم ينقطع الشجار بينهما يومياً تقريباً ، ولم يضيق الزمن الهوة بين الرجل الذى تدور برأسه ألف فكرة والمرأة التى تعبد رباً واحداً ولم يتوقف أصدقاؤه قط لتحيتها عندما كانوا يأتون لزيارته . ولما اكتشفت علاقته بصوفى ثارت ثائرتها التى بدت له فرصة غير ملائمة للافتراق عنها تماماً . ولفترة من الوقت ظل يتناول طعامه فى مكتبه ، وكتب إلى جريم يقول « إنها بدأت تحس بنتائج هذا الفراق البسيط . إن نفاد نقودها وهو ما أراد وشيكا ، سيؤدى حتما إلى الصلح وعودة الإمور إلى مجاريها[١٠٨] . وإنتابها المرض فرق قلبه لها وتولى رعايتها متذمراً ، وتجاوبت معه فى رقة ظن منها أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة . ومهما يكن من أمر فإنه فى رسالة بعث بها إلى صوفى وصف مرض زوجته أنطوانيت مازحاً . وعندما فكر صديقه سوارد فى الزواج نصحه ديدرو أن يلقى بنفسه فى لجة اليم بدلا من الزواج . (وكان زواج سوارد من أسعد الزيجات فى عصر الشقاء هذا) .

وكان من الجائز أن يولى ديدرو الفرار من داره لولا أنه أحب وسائل الراحة فى بيته ، وشغف حباً بابنته الجميلة . وكانت أنطوانيت (١٧٣) فى الثالثة والأربعين حين وضعت طفلها الرابع . وشبت مارى أنجليك واكتملت لها كل مفاتن الأنوثة ، فركز ديدرو كل اهتمامه عليها وتعلق بها ، فشاركها فى ألعابها . وأنا لنتصور الرجل الذى أثقلت الفلسفة رأسه يلعب مع ابنته الصغيرة الغمضية والحجلة والطفل المعصوب العينين « كنت شغوفاً بابنتى الصغيرة إلى حد الجنون . أية شخصية محبة هى : أوأية سيدة أستطيع أن أخلق منها إذا سمحت لى امها بذلك » . وعنى بتلقينها كل الفضائل المسيحية . ولما قاربت سن البلوغ زودها بتوجيهات صريحة لتصون نفسها من ذئاب باريس . وماذا كانت تعنى عروضهم ؟ « إنها تعنى يا آنسة رضاء لى ، هلاجللت نفسك بالفضيحة والعار ، وفقدت مركزك الاجتماعى

وتواريت عن أنظار المجتمع ، وحبست نفسك فى أحد الأديار وجعلت أباك وأمك يموتان حزناً وجزعاً (١٠٩)؟

ومن ثم فإنه مثل أى أب فرنسى أدخر مالا ليدفع لها الصداق ، واتصل بمختلف الأسرات ليجد لها زوجاً فى الوقت المناسب ، واستقر رأيه على اختيار زوج ابنته ورفضته أمها انطوانيت ، ولكن وافقت عليه الآنسة مارى وزفت إليه (١٧٧٢) ، وبكى ديدرو لفراقها ، ولكن اغرورقت عيناه أكثر بدموع الفرح عندما رأى سعادتها الزوجية ، وعاون الزوجان الصغيرين بسخاء قائلا « أليس من الأفضل أن أعاونهم فى وقت الشدة أكثر من أن أنتظر إلى الوقت الذى لا يعودان يحتاجان إلى فيه » . وأصبح زوج الإبنة هذا صاحب مصنع ناجحاً كما أصبحت ذريته بعد عودة حكم البوربون (١٨١٤) من المحافظين الحذرين الحريصين .

ولما نضج فى ديدرو الاحساس بالأبوة بدأ يحسن فهم أبيه ، وينظر بين الاجلال والتقدير للقانون الأخلاقى الذى ساعد رجلا على تنشئة أسرة طيبة ، ولكن قدراً كبيراً من البوهيمية ظل يلازمه . وعلى الرغم من أنه حب عرينه وملابسه وأخفافه القديمة ، وأولع بتدفئة أصابع قدميه أمام النار ويلزم البيت ، فإنه كان يحرم نفسه من هذه المتعة بين والحين ، مثلما قضى مرة شهراً مع دى هولباخ فى جراندفال Grandval وظل يرتاد المقاهى ، وكان شخصية مألوفة فى بعض الصالونات ، وأحبته مدام حبوفرين على الرغم من خشونته فى الحديث . وفى نوبة من نوبات عطف الأمومة أرسلت إليه مكتبا جديداً وطاقماً من الكراسى المريحة المصنوعة من الجلد وساعة حائط ضخمة من الذهب والبرونز ومبذلا فاخراً — « روب دى شامبر » وقدم لها الشكر وتخلى عن أثاثه القديم وهو حزين ولكنه عبر عن أعمق الأسف لردائه الذى نبذه ! « لم لم احتفظ به أنه قد صنع من أجلى ، ولا يصلح إلا لى ولا أصلح إلا له ، والتأم مع كل ثنية فى جسمى دون أن يزعجنى ، وكان رداء جميلا مليحا على حين أن الرداء الجديد جامد يابس

وكأنه يجعل منى تمثالا لعرض الأزياء (مانيكان) . وكانت طبيعته الطيبة الودودة تسارع إلى تلبية كل نداء وتأدية كل خدمة ، فإذا علا التراب أحد الكتب أمكن استخدام أحد جوانب الرداء منفضة . وإذا كان الحبر على قلمى سميكا لا يتدفق كان جانب الرداء على أهبة الاستعداد . وإنك لترى من خلال الخطوط السوداء الطويلة كم من الخدمات أدى هذا الرداء . إن هذه الخطوط والأشرطة السوداء هى التى أنبأت عن الأديب وعن الكاتب وعن المجد الكادح ، أما الآن فيبدو على انى ثرى خامل الذكر ، لا يعرفنى أحد وكنت صاحب السلطان المطلق على ردائى القديم أما الآن فقد أصبحت عبداً أسيرا للرداء الجديد »(١١٠)

واعتبر ديدرو أن صداقاته هى أكبر ساوى وأعظم إلهام له فى حياته . وكان ارتباطه بجريم أوثق وأبقى من سائر محبيه . وفى ١٧٧٢ بعد أن كان الواحد منهما قد عرف الآخر لمده اثنتين وعشرين عاما كتب إليه « عزيزى صديقى الوحيد ، لقد كنت دائماً وستكون دائماً صديقى العزيز الوحيد (١١١) ومع ذلك أساء فتور جريم وتظاهره بعدم الاكتراث فى بعض الأحيان إساءة بالغة إلى ديدرو . إن جريم الألمانى استغل طيبة قلب ديدرو وكثيراً ما أنابه عنـــه فى تحرير صحيفته « كورسبندانس » وحل محله لا فى كتابة أخبار المعارض فحسب ، بل فى عرض أحدث الكتب كذلك . وفى بعض الأحيان اشتغل أثناء الليل حتى آخر لحظة حددها جريم لإنجاز العمل (١١٢) وعرض جريم على ديدرو أجراً فرفض أن يؤجر . ومن المؤسف أن نروى أنه فى ١٧٧٣ سمع ستانلاس بونياتوسكى ملك بولنده أن ديدرو كان يعد العدة لزيارة سانت بطرسبرج ، وفكر فى دعوته للتوقف لعدة أيام فى وارسو ، فما كان من جريم إلا أن نصح الملك بأنه لا غناء فى التعرف على الفيلسوف « إن ديدرو بدلا من استغلال وقته فى اقتسام مجد العبقرية مع فولتير يضيعه فى كتابة شذرات لصحيفة كورسبنداس أو يضيعه سدى مع كل من يجد فى نفسه الجرأة ليسأله . وأستطيع أن أؤكد لجلالتكم أنه سيموت مغموراً غير معروف (١١٣) » .

وربما كانت أسعد ساعات ديدرو (عدا الوقت الذى كان يقضيه مع ابنته أنجليك) هى تلك التى كان يقف فيها خطيبا فى أمسيات دى هولباخ أو مدام جيوقرين للعشاء ، وينطلق فى الحديث بفصاحة فى أى موضوع وهو لا يكون فى أفضل حالا ته فى الاجتماعات التى يغلب عليها الأدب والتهذيب والتى يكون فيها الظرف هو المطلوب لا الأفكار . وكم انزعجت مدام جيوفرين نفسها من تحمسا ته ، وكانت نصائحها له بالاعتدال و التزام آداب اللياقة قدر شطحاته هو ، ولكن على مائدة البارون التى اجتمع إليها كما أكدوا لهيوم ، سبعة عشر ملحدا أطاق ديدرو لنفسه العنـــان و من ثم (كما أجمع كلهم تقريباً) لا يكون فى أحاديث باريس الممتعة ما هو أكثر امتناعا وسحرا من حديث ديدرو ويقول مارمونتل « إن الذى عرف ديدرو من كتاباته وحدها لا يعرفه إطلاقاً ...لقد نعمت منه بمتعة فكرية أعظم[١١٤] أما هنرى ميستر الذى كثيرا ما نسمعه فإنه يصفه فى مقارنة ملائمة « إنى عندما استرجع ديدرو فى ذاكرتى وأرى شدة تنوع أفكاره وغزارة علمه المذهلة وتحليقه وشطحاته السريعة وحرارته واضطراب خياله المتهور و كل ما فى حديثه من فتنه وسحر وتشويش ، أتجاسر فأشبه شخصيته بالطبيعة نفسها تماماً ، كما تعود أن يتصورها ، غنية خصبة تكثر فيها الجراثيم من كل جنس ، وديعة عنيفة بسيطة فخمة ، قيمة مهيبة ولكن على غير مبدأ أو قاعدة ، ودون سيد ذى سلطان ودون إله [١١٥] .

واستمع إلى تقرير مباشر عن حديث ديدرو عن نفسه « بدا أنى شاذ غريب عليهم ، ملهم سماوى . إن جريم نفسه لم يتهيأ له من البصر ما يرانى به ولا من السمع ما يستمع إلى به ، ودهشوا جميعا وأحسست أنا نفسى بين جنبى بشىء من الرضا لا أستطيع التعبير عنـــه ، إنه كان أشبه بنار تضطرم فى أعماق تلفح صدرى ، انتشرت بينهم وألهبتهم . كانت أمسية من الحماسه كنت أنا مضرمها »[١١٦] .

وكانت شهرته المعاصرة أعظم بين من عرفوه منها بين أولئك الذين

أوا فقط أعماله المنشورة ، وأهمها دائرة المعـــارف ورواياته وأحسنها التمسك بالدين وجاك المؤمن بالقضاء والقدر ،وحلم دالمبير وابن أخى رامو، ولم تكن قد طبعت عند وفاته . ومل أجل هذا السبب من ناحية ولتطرف آرائه وأفكاره فى الدين والجنس اخفق ولم يحاول قط اللحاق بالأكاديمية ومهما يكن من أمر فإنه فى نظر اصدقائه كان الفيلسوف زعيم جماعة الثائرين المتمردين . إن روسو حتى بعد أن كرهه باعتبـــاره عدوا خفيا كتب فى اعترافاته « سيبدو ديدرو لعدة قرون قادمة فذا أعجوبة ، وينظر الناس من بعيد إلى هذا الرأس العالمى بمزيج من الأعجاب والدهشة كما ننظر نحن الآن إلى رأس أفلاطون وأرسطو [١١٧] .

وافتتن جيته وشيللر ولسنج بكتابات ديدرو وشارك ستندال وبلزاك ودلاكروا فى الاعجاب به واعتبره كومت أسمى عبقـــرية فى ذاك العصر المثر [١١٨] واسماه ميشيليه « برومثيوس الحقيقى (فى الأساطير اليونانية هو الشيطان المعبود الذى سرق النار من السماء وعلمها لأهل الأرض) . وقال إن المرء ليستطيع أن ينهل من كتابات ديدرو لمدة مئة سنة ومع ذلك تتبقى ذخائر لا حصر لها [١١٩] وهلا استمعنا إلى مدام جيوفرين التى عرفته حق المعرفة ، ولكنها لم تقرأ كتبه ، إنها كتبت تقول « أنه رجل طيب ورجل أمين ولكنه عنيد متشبث برأيه (ولو كان خطأ) غير متزن إلى حد أنه يرى ويسمع الأشياء على ما هى عليه ومثله دائماً كمثل رجل يحلم ثم هو يؤمن بأنه أحلامه صادقة [١٢٠] .

كان ديدرو طيبا وسيئاً ، أمينا وخائنا ، عنيداً ونزاعا إلى الحق ، قليل التوازن وخلاقا مبدعاً بشكل بارع ، كما كان حالماً ومناضلا ومتنبئاً ، يبدو أن مكانته فى التاريخ تعلو وتسمو كلما ابتعد زمانه ، حتى إن بعضهم اليوم ليعتقد أنه أعظم شخصية امتاعا وإثارة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر [١٢١] ولنقف الآن عند هذا الحد حتى نلتقى به مرة أخرى وجها وجها مع امبراطورة ثم فى لقاء الفلاسفة مع الموت .